السنة الأولى (ربيع الأول سنة ١٣٥٣ ــ يونية سنة ١٩٣٤) العدد الأول

صحيفة دار العلوم

في العلم والأدب والاجتماع

تصدر كل ثلاثة شهور

المدير
أبو الفتح الفقي

رئيس التحرير
محمد علي مصطفى

﴿ المراسلات ﴾

« تكون المراسلات باسم **مهدي علام** أستاذ التربية بدار العلوم »

﴿ الاشتراك السنوي ﴾

لغير الطلبة	٢٠ قرشاً
للطلبة	١٢ «
ثمن العدد	٥ قروش

المطبعة الرحمانية بمصر
شارع الخرنفش رقم ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢

أعضاء لجنة الصحيفة

حضرات الأساتذة

(١)	السباعى السباعى بيومى	المدرس بدار العلوم
(٢)	حامد عبد القادر	وكيل كلية أصول الدين
(٣)	زكى المهندس	المدرس بدار العلوم
(٤)	طه أحمد إبراهيم	المدرس بكلية الآداب
(٥)	عبد الحميد حسن	المفتش بوزارة المعارف
(٦)	عبد الرحيم محمود	المدرس بالمدرسة التوفيقية الثانوية
(٧)	عبد المغنى المنشاوى	المدرس بدار العلوم
(٨)	عبد الوهاب حموده	المدرس بكلية الحقوق
(٩)	على عبد الواحد	المدرس بدار العلوم
(١٠)	محمد عطية الأبراشى	المدرس بكلية الآداب
(١١)	محمد على مصطفى	المدرس بدار العلوم (رئيس التحرير)
(١٢)	محمد مهدى علام	المدرس بدار العلوم (مساعد التحرير)
(١٣)	محمد هاشم عطيه	المدرس بدار العلوم
(١٤)	محمود محمد مصطفى	المدرس بكلية اللغة العربية
(١٥)	مصطفى السقا	المحرر بالمجمع اللغوى الملكى

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاح

بقلم

الأستاذ أبي الفتح الفقي

المفتش بالمعارف ومدير الصحيفة

وبعد فقد كان من نصيب أبناء دار العلوم أن يكونوا سدنة العربية وحماتها، وأولياء لغة الدين ورعاتها، وقد ظلوا ثلاثا وستين سنة يؤدون رسالتهم على وجهها الأكمل. مبرهنين على جدارتهم بالثقة التي وضعت فيهم، وكفايتهم للأمانة التي حملوها. وليس إنتاجهم العلمي، وأثرهم الأدبي، في مختلف نواحي الحياة المصرية بحاجة إلى دليل.

على أنهم أرادوا في سنة ١٩٠٦ تعميما للفائدة أن تكون لهم صحيفة تنشر بحوثهم بين جميع طبقات الأمة، فكانت. وكانت لسان صدق مبين. ثم عصفت بأبناء دار العلوم عواصف هوجاء، اجتاحت فيما اجتاحت ناديهم وصحيفتهم. فخضعوا لقضاء الله، ولكن غير يائسين من المستقبل، حتى كانت النهضة القومية في سنة ١٩١٩ التي عمت جميع مرافق البلاد، فأخرجوا باتحادهم مع زملائهم وأصدقائهم خريجي المعلمين العليا «صحيفة المعلمين». دامت هذه الصحيفة عدة سنوات، وكانت خير

ما أخرج للأمة المصرية فى بابها . ثم قضى عليها ما قضى على كثير من مظاهر النهضة المصرية .

كل هذه الحوادث لم تفت فى عضدنا ، ولم تضعف من إيماننا ، ولم توهن من ارادتنا ، لعظيم تقديرنا لرسالتنا ، وقوة إيماننا بأن الله لن يضيع أجرَ من أحسن عملا . لهذا فكرنا فى تكوين « جماعة دار العلوم » فاجتمعت الجماعة العامة المؤقتة فى ٢١ يونيو سنة ١٩٣٣ . ثم الجماعة العامة النهائية فى ١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٣ واختارت مجلس إدارتها الذى أصدر قراره بإخراج هذه الصحيفة ، وشرفنى وطائفة من إخوانى بالعمل على إخراجها . فلبينا الدعوة ، وهاهى ذى صحيفة دار العلوم نقدمها للقراء واثقين بمعاونتهم لنا على رفعها إلى المستوى اللائق بهم . نخرج هذه الصحيفة وثقتنا بدوام إصدارها تملأ صدورنا ، غير مكترثين لما عسى أن يقال عن الإخفاق فى الماضى ، لأن الإخفاق ليس بعار . وإنما العار أن نرضى بالأخفاق . إن نهوض الجماعات ، بله الأمم ، أثر لصيحات تنبه الغافلين ، وتوقظ الخاملين . وصيحتنا اليوم وليدة إرادة قوية ، وعزيمة صادقة على تخليد صحيفتنا . لأننا نعمل مسترشدين بتجارب الماضى ، مستنيرين بنور الحاضر ، مزودين بأمل المستقبل . لانبغى من إصدارها تجارة ولا ربحا ، ولا صيتاً ولا فخراً ، وإنما نبغى خدمة لغتنا التى هى مظهر قوميتنا ، ولسان ديننا .

ولا ننسى هنا خريجى دار العلوم من أبناء الأقطار العربية الشقيقة الذين أعدتهم لنشر الثقافة العربية فى بلادهم نحييهم فى ديارهم . ونناشدهم

دارهم التى تربوا فيها ، أن يساهموا فى صحيفتها وفى كل أعمال جماعتها . حتى تتوثق الروابط ، وتدعم الصلات .

إن هذا الروح الذى يبعث فينا الجد والنشاط ، ويهدينا ، أفرادا وجماعات ، إلى أقوم السبل فى خدمة العلم ليس إلا فيضا من روح مولانا المعظم ، حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول ، باعث النهضة ، ونصير العلم ، ومحيي ما عفا من ربوعه ، ومجدد ما درس من معالمه ، الشامل بعطفه السامى خدامه الصادقين وطلابه المخلصين . نضرع إلى الله ، بقلوب ملؤها الإخلاص لذاته الكريمة ، أن يمد لنا فى أسباب حياته الغالية . وأن يبقيه لأمته سنداً وذخراً مدى الأيام ممتعا بولى عهده الأمير المحبوب ، زين الشباب أمير الصعيد .

وليس أجدر بنا فى هذا المقام من أن نذكر بالغبطة والثناء ما أبداه حضرة صاحب المعالى الوزير الجليل حلمى عيسى باشا وزير المعارف من جميل العطف وحسن الرعاية لجماعة دار العلوم خاصة وأبنائها عامة . وإن شكرنا على هذا لعظيم .

وليس لى بد الآن من الاقتصار على هذه الكلمة تاركا الكلمة الفنية ومنهج الصحيفة لحضرة زميلى وصديقى رئيس التحرير ؟

أبو الفتح الفقى
مدير الصحيفة

تقـــديم

بقلم

محمد على مصطفى
أستاذ التربية بدار العلوم، ورئيس تحرير الصحيفة

باسم الله أقدم صحيفة دار العلوم لجمهور القارئين من رجال الأدب والعلم، والمشتغلين بتهذيب الناشئين، وكل من له نصيب من الثقافة العامة وغرام بالمزيد من العلم. وأنا - حين أقدمها لهم - جد مغتبط بما أتاح الله لأبناء دار العلوم من اجتماع الكلمة، واتفاق الرأى، ووحدة الغرض، وصدق الجهاد، فى سبيل الغاية النبيلة التى كان من حظهم فى الحياة أن يعملوا لتحقيقها.

نعم. اجتمعت كلمة أبناء دار العلوم على الإخلاص لله، والمليك، والوطن؛ واتفق رأيهم على أن يتعاونوا فى خدمة اللغة العربية متنها، وقواعدها، وآدابها، وما اشتملت عليه من العلوم والمعارف، حتى تستنير العقول، وتتفتق الأذهان. وتتسع الآفاق الفكرية، وتسلم الألسنة من تلك الرطانة التى خالطتها، ومن اللحن الذى جرت عليه. وقد جعلوا من وسائلهم إلى بلوغ هذه الغاية تلك الصحيفة التى نعالج إصدارها؛ فستكون مجال أقلامهم، وترجمان أفكارهم، وستكون لسانهم الصادق، ورائدهم الأمين، وحجتهم الدامغة. تعبر عن مشاعرهم التى تجيش بها الصدور، وتصور آمالهم وما يرجون لبلادهم من الخير، وترى الناس سبل الأصلاح، وترشدهم إلى طريق الواجب، مخلصة فى كل ما تدعو إليه، لاترى لإنسان على إنسان فضلا إلا بالعمل الصالح.

وستعنى الصحيفة بالنظريات الجديدة فى علوم التربية فتدرسها دراسة تمحيص ونقد ، حتى تفرق بين ما يصلح منهـا فى تربية أبنائنا وبناتنا وما لا يصلح ؛ فان الناس قد فتنوا بمبتدعات الغرب ، وشغفوا بكل محدثاته ـ على الرغم مما قد تنطوى عليه من زيف ـ ونسوا أن لكل بلد ظروفاً اجتماعية ، وعادات متوارثة ، وعقائد دينية خضعوا لسلطانها قروناً متعاقبة وأوضاعاً جروا عليها حقباً من الدهر ، وطرائق فى التفكير وأساليب الحياة تميزهم عن سواهم . وليس هناك شك فى أن كل إصلاح لا يحسب لهذه العوامل وغيرها حساباً لا يمكن أن يصل بالأمة إلى ما تصبو إليه من غايات ، وما تتمناه من نجاح وسعادة فى الحاضر والمستقبل .

وستتسع صفحات المجلة لنشر نتائج التجارب التى وصل إليها المعلمون عامة والمشتغلون بفنون التربية خاصة فى أى نوع من أنواع التعليم وفى أية مشكلة من مشاكله كانت التجربة ، راجين من وراء ذلك أن نشحذ همم العاملين ونشجعهم على أصالة الرأى والافتنان فى أساليب التجريب حتى يكون لإخوانهم منهم قدوة صالحة ، وحافز للعمل الطيب .

ولقد جعلنا فى صحيفتنا باباً مستقلا للبحوث الفلسفية ونظريات الأخلاق والاجتماع ؛ وغرضنا من ذلك أمران : أما أولهما فدراسة مظاهر الحياة فى مراتبها المختلفة ، وإدراك أن لكل لون منها أساساً فلسفياً ينشأ منه ، ويقوم على مقتضاه ، ثم محاولة التوفيق بين هذه المظاهر وردها إلى أصل واحد ينتظم العالم بأسره . وأما ثانيهما فالوقوف على تاريخ الحياة الفكرية ومعرفة ما بين النظريات الفلسفية من ارتباط وما امتازت به كل أمة من نواحى الفكر حتى يكون لنا من الماضى قبس نستضىء به فى حياتنا الحاضرة والمستقبلة .

وهناك أمر ثالث لا محيص لنا عن البحث فيه ، ذلك هو تراث أسلافنا

وكنوزهم العلمية ، ومعرفة ماخلفوه من أفكار أضاءت للناس السبل حين عز الهادى وأعوز الدليل . ولسنا نقصد بذلك أن نشيد بذكرهم بحق وبغير حق ؛ فنحن أولى الناس بأن نتبع الحق حيث وجدناه ، وأن نأخذ به متى بان لنا وجهه . ومعاذ الله أن يسلس قيادنا للهوى أو أن يكون للنزغات على قلوبنا سلطان .

وإذ كانت دار العلوم مستقر العلم فى المشرق ، وموئل طلابه ، وحلقة اتصال بين الثقافات المختلفة لا فرق بين الشرقية منها والغربية ، فان من الطبيعى أن يكون فى صحيفتنا متسع لدراسة الآداب الأجنبية ، وتتبع ما أخرج رجال الأدب فى الأقاليم المتباينة من شعر أو نثر ، ومعرفة مذاهبهم فيما ينبغى أن يتناول الأدب ، وفيما يجب أن تكون عليه طريقة العرض ، حتى يتأثر الأدب العربى بسواه ويأخذ شعراؤنا وكتابنا وقصاصنا عن زملائهم فى الأمم الأخرى ما قد يرونه لهم من حسنات . وبذلك يتصل الأدب العربى بالآداب الأجنبية ويصير أدباً عالمياً .

ان صحيفة دار العلوم هى صحيفة المعلمين ، ولهذا رأينا أن يكون فيها مجال لأخبارهم وأخبار المعاهد التى يقومون بالتدريس فيها ، حتى يكون كل واحد على اتصال بأخوانه ، وعلى علم بما يبذلون من جهد فى سبيل تهذيب النشء وتثقيف العقول ، فيضاعف الهمم ، ويخلص فى العمل ، متأسياً بغيره ، ومنافساً له فى مجال الإصلاح والخير .

هذا ماقصدنا إليه ، وقد كنا فى غنى عن التصريح به اكتفاء بإضافة الصحيفة إلى دار العلوم ، لولا أن العادة جرت بأن يكون لكل صحيفة منهج واضح وبأن يكتب هذا المنهج فى صدر العدد الأول .

وهأنذا أقدم العدد الأول من الصحيفة فى غير ضجة ولا صخب ، ولكن فى هدوء واطمئنان وثقة ؛ مؤمناً بقول الله تعالى « فأما الزبد

فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » ومعتقداً أن أبناء دار العلوم الذين يعتزون بمعهدهم ويشرفون بالانتساب إليه ، يسارعون إلى معاونتنا بمالهم وأقلامهم حتى نرقى بصحيفتهم إلى المستوى الذى نرجوه لها . ولولا أن لنا فيهم ثقة واسعة وأملا عظيما ما أقدمنا على عملنا الخطير ، ولا حاولنا القيام بهذا الأمر الجليل .

ولعل من أمارات التوفيق أن يكون وزير المعارف ذلك الرجل الجليل القدر ، العالى الهمة ، الساعى إلى نشر العلم ورفع مستواه ، صاحب المعالى محمد حلمى عيسى باشا . فقد أظهر عطفه على معهدنا فى مناسبات كثيرة وشهد للمتخرجين فيه بالإخلاص فى العمل ، وافتخر بما يؤدون للبلاد من جليل الخدمات ، وأشاد بذكرهم فى خطبة بليغة ألقاها على أساتذة دار العلوم وطلابها حين شرفهم بزيارته فى الثامن من مارس سنة ١٩٣٢ فاحتشد الطلاب لتحيته وخرجوا للقائه وانطلقت ألسنتهم بالثناء عليه وإنا نسوق الخطبة بنصها حتى يعرف أبناء دار العلوم رأى الوزير الجليل فيهم وفى مكانة معهدهم عنده فتنشرح لذلك صدورهم ويشعروا بالغبطة تملأ جوانحهم فينشطوا للعمل ويضاعفوا الجهد .

قال حفظه الله

« أبنائى الطلبة

لقد سمعت ما أنشده شعراؤكم . وألقاه خطباؤكم فسرنى ما أوحاه الخيال للشعراء وأفاضته البلاغة على الخطباء . من روعة التصوير لعواطفكم الفياضة بآمال الشباب التى هى عدته فى الحياة . وحبكم لمعهدكم الذى له عليكم فضل التثقيف والتهذيب . وإشادتكم بتاريخه الذى هو صفحة مجيدة من تاريخ النهضة الأدبية ببلادنا العزيزة . وإعرابكم عن أصدق عواطف الولاء

والمحبة لمعقد أمال البلاد . ومناط فخرها . جلالة مليكنا المعظم . ودعائكم لجلالته ولسمو ولى عهده المحبوب بالعز وطول البقاء .

وإذا كان ماسمعته اليوم قد برهن على تقدير الطلاب للرعاية الملكية السامية التى يسديها جلالة الملك للعلم والمشتغلين به . ورغبته الصادقة فى أن تزدهر النهضة الأدبية ويطرد تقدمها فى بلاده العريقة فإن هذا الشعر البليغ . والنثر المحكم . لدليل على أن دار العلوم لا تزال قائمة بمهمتها فى خدمة الأدب واللغة على أحسن الوجوه وأكملها .

إن لمعهدكم هـذا فضلا على مصر لا ينساه أبناؤها . فبمجهود أعلامه ارتقت لغة البلاد . وأينعت آدابها ولأبنائه الذين خدموا لغة القرآن بالتدريس والتأليف والنشر فضـل على أبناء هذه الأمة على اختلاف منازلهم ومراتبهم فليس منهم من لا يحس أثر هذا الفضل على قلمه أو لسانه ومن لا يقدر أثر هذه الثقافة الأدبية النافعة التى تلقاها فى المدارس على شيوخ دار العلوم .

ومما يذكر بالثناء على معهدكم أن لرجاله تقاليد معروفـة هى بجانب وفائهم للعلم واللغة تحليهم بمكارم الأخلاق . وحسن السيرة . وحميد الصفات . وأنهم دائماً قدوة حسنة لتلاميذهم ومثل صالح لهم .

فلعل هذه السمعة الطيبة تظل شعار هذا المعهد العتيد .

أيها الطلبة اذكروا دائماً رسالة المعلم فى الحياة . تلك الرسالة التى ستضطلعون قريبا بأعبائها . وأنها رسالة روحية لا تؤدى إلا بالإخلاص فى العمل مع التزود من العلم والتمسك بالفضيلة . وقدروا عملكم فى تربية الناشئة قدره وارفعوه إلى مكان الاحترام اللائق ببناة الأجيال القادمة .

وغداً عند ما تنزلون إلى ميدان العمل ترون أن الحكومة قد أعدت لكم من وسائل هذا العمل العظيم . ورسمت لكم من حدوده . ووضعت

لكم من قواعده ما يمكنكم من أداء هـذه الرسالة العلمية . وناطت الباقى بضمائركم وإخلاصكم لعملكم . وتقديركم لواجبكم .

اذكروا كل هـذا واذكروا معه سمعة معهدكم ، وطيب أثره . تصل اللغة العربية على يدكم إلى ما نرجوه لها من الازدهار ، والأخلاق الفاضلة إلى ما نؤمله لها من التوطد والرسوخ فى نفوس الأبناء فالآباء

أما ما وجهتموه إلى من المدح والثناء فأشكركم عليه كل الشكر وأتمنى لمعهدكم الذى له عندى تقدير خاص ولى برجاله وخريجيه ثقة كبرى اطراد التقدم والفلاح . ولكم جميعا حسن المستقبل وعظيم النجاح فى ظل راعى العلم وحامى الآداب والفنون صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر حفظه الله . »

هـذا رأى معاليه نسجله مغتبطين بهـذه الشهادة جرت على لسان القاضى العادل والوزير العامل ، حريصين دائما على أن نكون محل الثقة ومطمح الأبصار ، والله يسدد خطانا ويهدينا سواء السبيل . م؟

محمد على مصطفى
رئيس التحرير

اللغة والأدب

دار العلوم واللغة العربية

لحضرة الأستاذ على الجارم

المفتش بوزارة المعارف

يا ابنة السابقين من قحطان   وتُراثَ الأمجادِ من عدْنان
أنتِ علمتِني البيانَ فمالى   كلما لحتِ حار فيك بيانى ؟
ربّ حسن يعوقُ عن وصف حسن   وجمالٍ يُنسِى جمالَ المعانى
كنت أشدو بين الطيور بذكرا   ك فتعلو ألحانَها ألحانى
وأصوغ الشعر الذى يفرَعُ النجـــمَ وتُصغى لجرْسه الشعْريان
يا ابنة الضاد أنت سرّ من الحُسْـــن تجلّى على بنى الانسان
كنتِ فى القفر جنةً ظللتها   حالياتٌ من الغصون دوانى
لغةُ الفن أنت والسحرِ والشعرِ   ونورُ الحجا ووحىُ الجَنان
ربّ جيش من الحديد تولّى   واجفَ القلب من حديد اللسان
وبيانٍ بنى لصاحبه الخُلْـــدَ مُطِلاً من قِمّة الأزمان
وقصيدٍ قد خفّ حتى عجبنا   كيف نالته كِفّة الأوزان

☆☆☆

بلغ العربُ بالبلاغـــة والاســـلام أوْجاً أعيا على كيوان
لبسوا شمسَ دولة الفرس تاجاً   ومضوا فى مغافر الرومان
وجرَوْا ينشرون فى الأرض هدياً   من سنى العلم أو سنى القرآن

لاتضلُّ الشعوبُ مصباحُها العلـــمُ يؤاخيه راسخُ الأيمان
فاذا أطفىء السراجُ فمينٌ وضلالٌ ما تُبصِرِ العينان
أين آل العباس ريحانةُ الدهـــر وأين الكرامُ من مَرْوان ؟
خفت الصوتُ لا البلادُ بلادٌ يوم بانوا ولا المغانى مغانى
أزهرت فى حماهم الضادُ حينا وذوت بعـــدهم لغير أوان
إن أصاخت فالقولُ غيرُ فصيح أورنتْ فالوجوه غيرُ حسان
فمضت نحو مصر مثل قطاةٍ فزّعتها كواسرُ العقبان
يكدُرُ العيش مرةً ثم يصفو كم لهذى الحياةِ من ألوان
ثم هبّت زعازعٌ تركتها بين مُرّ الأسى وذلِ الهوان
وإذا نهضةٌ تدب بمصرٍ كدبيب الحياة فى الأبدان
وإذا اليومُ باسمٌ والليالى مشرقاتٌ والدهرُ ملُقِى العِنان
وإذا الضادُ تستعيدُ جمالا كاد يقضى عليه ريب الزمان
نزلتْ فى حِمَى فؤادٍ فاضحت من أياديه فى أعزّ مكان
ملك شاد للكنانه مجـــداً فسمت باسمه على البلدان
كلَّ يوم يَمُدُّ للعـــلم كفاً خُلِقَتْ للوفاء والإحسان

٭٭٭

إنّ دارَ العلوم بنْيَةُ إسما عيلَ تزْهَى به على كل بانى
من يسامى أبا المواهب والأشـــبال فى فيض جوده أو يدانى ؟
هى فى مصر كعبةٌ بعث الشر قُ إليها طوائفَ الركبان
قد أعادتْ عهدَ الاعاريب فى مصـــرَ إلى ناعمٍ من العيش هانى
وأظلت بنتَ الفـــدافدِ والبيـــدِ بأفياء دَوْحِها الفيْنان

درجت بــين فتية وشيوخ كلهم ينتمى إلى سحبان
وأطلّت من الخباء عليهم فسبتهم بسحرها الفتان
فُتِنوا بالعُذَيْب والسفح والجز ع ووادى العقيق والصّمان
يتلقّوْن وحيها كل حين ويناجون طيفها كل آن
ويغنون باسمها مثل ما غنّــى زهيرٌ بسيرة ابن سنان
نثرت درها الفريد فكانوا أسرع الناس فى التقاط الجمان

☆☆☆

رب شيخ أفنى سواد الليالى ساهد العين جاهداً غير وانى
من بحوث إلى كتابة نقد ثم من معجم إلى ديوان
يقنِص الآبدات عزّت على الصيْــد فماست بين الربا والرِعان
سارحاتٍ كأنها قطع الوشْــيِ يطارزن سندس القيعان
إن تسمعن نَبْأَةً غِبن فى الريــح كسرٌ يصان بالكتمان
فاذا ما أمِنّ يخرجن أرسا لاً كخيلٍ نشِطن من أرسان
كل جزء فى جسمهن له عيــن على الشّر أو له أذنان
لم يزل صاحبى يعالج منهــنّ نفاراً مستعصيا ويعانى
فى فلاة لا تحمل الريح فيها غير رناتِ قوسه المرنان
كلما طار خلفهن تسربْــن هباء فى غيهب النسيان
فتراه حينا كما وثب الليــثُ وحينا ينساب كالافعوان
وهى تلهو به فآنا تجافيــه وآنا تُملى له فتدانى
مرةً فى مدى يديه وأخرى ماله باقتناصهن يدان
لم يقف نادماً يقلب كفيــه فِعالَ المجوّف الحيران

ثم كانت عواقب الصبر أن ذلّت له الشاردات بعد الحران
ملّكته أعناقها فى خضوع وحبته قيادها فى لِيان
رُبّ شعر له يردده الدهرُ فتصغى مسامع الأكوان
يتمنى الربيع لو نخذت منه حلاها ذوائبُ الأغصان
من بنات الخيال لوكان يُسْقَى لعددناه من بنات الدنان
رددته القيانُ يكسبنه حسناً فاربَى على جمال القيان
قد أثار الغبار فى وجه ميمو نٍ وغنّى على فتى ذبيان

* * *

شِيخةَ الدار أنتم خدم الفصحى وحراسُ ذلك البنيان
لبست جدّة الصبا فى ذَراكم وغدت من حلاه فى ريعان
غير أن الحياة تعدو ولا يد رك فيها طِلابه المتوانى
سابقوها بالدين والخلق السّمحِ وصدق الوفاء للاخوان
سابقوها بالجد فالجدُ والمجدُ كما شاءت العلا توأمان
ذللوا للشباب مستعصَى الفصحى فان الرجاء فى الشبان
واث.وها قلائداً وعقوداً تتحدى قلائد العقيان

* * *

بَسَم الدهر أن رآكم بناءً عبقرياً موطد الأركان
كم رجا الدهر أن يشاهد يوماً جمعكم سالماً من الشنآن
انما الكف بالبنان ولا تجدى فتيلاً كفٌ بغير بنان
جمعتكم أواصر وصلات طَهُرت من دخائل الأضغان

فاسلكوا المهيعَ القويم وسيروا في شعاع المنى وظلّ الأمانى
واشكروا للوزير بيض أياديـه ومدرار فيضه الهتان
يبذل الخير فطرة ليس يثنيه عن الخير والصنيعة ثانى
هو ذخر الطلاب كم وجدوا فيه أماناً من طارق الحدثان
يبعث الغيث والرجاء لقاصٍ ويمد اليمين برًّا لدانى
كم له مِنة على الضاد هزّت كلّ لفظٍ فيها الى الشكران
سِعد العلم واستعزّ بحلى وغدا دوحهُ قريب المجانى
سار مسترشِداً بهدى مليكٍ ماله فى أصالة الرأى ثانى
ملك تسعد البلاد بنعما ه ويزُهى بنوره القمران
عاش للدين والمكارم والنبل وبث الحياة والعرفان
وليعش للبلاد فاروق مصرٍ قدوةُ الناهضين رمزُ الأمانى

الحلقة المفقودة

بقلم
محمد مهدى علام
أستاذ التربية بدار العلوم

تمهيد

إن لهـذه المقالة تاريخاً شائقاً يجمل أن نقدمه بين يديها : فمنذ عام ونصف عام شاء صديقنا الفاضل الأستاذ أحمد أمين أستاذ اللغة العربية المساعد بالجامعة المصرية ، أن يحى رجال « دار العلوم » فى أول عدد صدر من « الرسالة » . فكتب مقالة فيما سماه « الحلقة المفقودة » فى علماء مصر ، وهم الذين جمعوا بين الثقافتين الإسلامية والأوربية . وقد شاء صديقنا الكاتب أن يختص أبناء دار العلوم بالنصيب الأوفى من سهام جعبته ؛ فكتبت يومئذ رداً على تلك المقالة ، وعرضته على عدد كبير من الزملاء ، فرأوا جميعاً — إلا واحداً — أن أنشر ذلك الرد فى الصحف . ولكننى رأيت أن الأستاذ احمد امين أكرم علينا من أن ننازله على صفحات الجرائد التى لا يقتصر قراؤها على خاصة القوم ، وأننا أعز على أنفسنا كذلك من أن نجعل قضيتنا — إن كان ثمة قضية — مضغة فى أفواه الناس جميعاً . وكنت إذ ذاك أعد كتاباً للطبع فآثرت أن أجعل ردى مقدمة لذلك الكتاب ؛ ووافقنى على رأيى ذلك الصديق الذى خالف جميع الزملاء . وقد شاءت الظروف ألا يطبع ذلك الكتاب إلى الآن ، فبقى الرد مطوياً . فلما قررت « جماعة دار العلوم » إخراج صحيفتها رأيت أن أنشر هذا الرد فى أول عدد منها ، كما نشر صديقنا الأستاذ احمد امين هجومه فى أول عدد من « الرسالة »

يدعى صديقنا المفضال أن رجال « دار العلوم » لا يمثلون إلا الثقافة

الاسلامية وحدها ، وأنهم لا يزالون حيث كانت مصر قبل اتصالها بأوربا : « إذا أنتجوا فعيب إنتاجهم أنهم لم يستطيعوا أن يفهموا روح العصر ولا لغة العصر ولا أسلوب العصر ، وإنما التزموا التعبير القديم فى الكتابة ، والنمط القديم فى التأليف ، وتحجرت أمثلتهم ومل الناس بلاغتهم ، وعمادها رأيت أسداً فى الحمام وعضت على العناب بالبرد وعشرة أمثلة من هذا الطراز . ومل الناس نحوهم ومداره ضرب زيد عمراً ورأيت زيداً حسناً وجهه . وسئم الناس منطقهم ، وكله الانسان حيوان وكل حيوان يموت فالانسان يموت وهذا حجر وكل حجر جماد فهذا جماد »

ويخيل إلى قارئ هذه المقالة أن كاتبها لا يعيش على أرض مصر ، ولا يتصل بعالم العلم والأدب فيها ، ولا بالثروة التأليفية التى نهضت فى هذا العهد ؛ أو أنه يعرف كل ذلك ولكنه — لسبب ما — لا يريد أن يعترف به . والحق أنى أنزه الأستاذ الفاضل عن كلتا النقيصتين ؛ ولكن عليه هو — لا علىّ أنا — أن يبحث عن مخلص ثالث لما تورط فيه قلمه .

وأرانى فى غنى عن الافاضة فى الرد على مزاعم الأستاذ . وحسبى أن أذكر له ، على عجل ، عدة مؤلفات من أقلام رجال « دار العلوم » تفند دعواه التى ادعاها .

أفلم يأته نبأ النحو الحديث وكيف يدرسه رجال « دار العلوم » ، وكيف يؤلفون فيه ؟ — وأنا عن عمد أذكر التدريس هنا ، لأنه عمل أساسى لرجال « دار العلوم » يقومون به فى هدوء لا تصحبه جلبة ، وأمانة لا يشوبها الإعلان عن النفس ، ألا سامح الله من لا يزال يعتقد ، أو يريد ان يعتقد الناس ، ان معركة زيد وعمرو لا تزال قائمة فى المدارس المصرية ! وهل اطلع السيد مثلا على كتاب « النحو الواضح » لمؤلفيه

النابهين ، الأستاذين على الجارم ، ومصطفى امين ؟ هل اطلع على اجزائه الستة للمدارس الابتدائية والثانوية ، وكل جزء منها مفخرة من مفاخر التأليف ، يشرف مؤلفيه ، والمعهد الذى ينتميان إليه ؟ إن كان الأستاذ لم يطلع على هذا الكتاب فليسأل المدرسين فى سوريا ، وفلسطين ، والعراق وبلاد المغرب ، فلعلهم أعرف بفضل هذا الكتاب منه .

وهل أتاه حديث « النحو المصور » نعم النحو المصور الذى يقف أمام العدسة ليخرج للتلاميذ ، بدلا من معركة زيد وعمرو التى ملكت على الأستاذ نفسه . صورا فتانة للنحو وقواعده ؟ وأنا أرجو صديقنا الكريم أن يطلع على هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة . ثم يتقدم بالشكر ، شكر العلماء المخاصين — للأستاذين الجليلين ، زكى المهندس ، ومحمود السيد عبد اللطيف .

وهل سمع صديقنا العلامة بكتاب « البلاغة الواضحة » بجزئيه الكبيرين قبل أن يتجنى علينا بدعواه أن بلاغتنا قد وقفت عند رؤية الأسد فى الحمام ، والعض بالبرد على العناب ؟ ألا بارك الله فى أقلام مزجت بالأدب البلاغة ، وجعلت دراسة المعانى والبيان ، لذة للعقل والوجدان !

وليغفر الله للأستاذ جهله ، أو تجاهله ، بكتب المنطق التى أخرجناها للناطقين بالضاد ! وحسبى منها كتاب « علم المنطق الحديث » لصديقنا البحاثة الأستاذ محمد حسنين عبد الرازق ، أو كتاب « علم المنطق » لصديقنا الألمعى الأستاذ احمد عبده خير الدين ، فهى صفحة فخار لخير الدين ولدار العلوم . فيه يلتقى أحدث ما كتب مناطقة الأوربيين باعرق ما كتب مناطقة المسلمين .

وأنا أذكر هذه الكتب على سبيل التمثيل لا الإحصاء ، فان أقنعت المنكرين ، وإلا فلدينا العدد الذى نباهى بتقديمه . وبديهى أننى اقتصرت

على العلوم الذى ذكرها صاحب « الحلقة المفقودة » المزعومة . ولعل من الفضول أن أذكره بما أخرجته عقولنا فى الشريعة الاسلامية باقلام الأساتذة الأجلاء : محمد زيد ، واحمد ابو الفتح ، ومحمد سلامة ، وأحمد إبراهيم . وحسن منصور ، ومصطفى عنانى ، وعبد الوهاب النجار ، وعبد الوهاب خير الدين وغيرهم . وفى التربية وعلم النفس والفلسفة بأقلام الأساتذة الأعلام : حسن توفيق العدل . ومحمد شريف سليم ، ومحمد عاطف بركات ، وعبد الرحمن زغلول ، وعبد العزيز جاويش ، وأبو الفتح الفقى ، وأحمد عبده خير الدين . ومصطفى أمين . وعلى الجارم ومحمد حسنين عبد الرازق ، وشرف الدين خطاب ، وعلى العنانى ، وعبد الحميد حسن ، واحمد على عباس . وعبد الحميد خضر ، ومنصور سليمان ، ومحمد على مصطفى ، وصالح هاشم عطية ، وحامد عبد القادر ، وأبو العلاء عفيفى ، ومحمد عطية الابراشى ، وعلى عبد الواحد ، ومحمد مهدى علام

ولأترك جانباً ما عدا ذلك من فروع العلوم المختلفة التى سجلنا فيها جهودنا ، لأنه يظهر أن الأستاذ لا يقض مضجعه إلا القواعد ، وقد أنبأته بحديثها الحديث .

وهل نسى الأستاذ أن الأزهر يوم أراد الاصلاح الجديد لم يجد أمامه إلا رجال دار العلوم يستنجد بهم ليقوموا بهذا العمل النبيل . فيكونوا رسل الثقافة الحديثه إلى المعهد العتيد ؛ وها هم أولاء عشرات الأساتذة منا يؤدون هذه الرسالة الشاقة فى ذلك المعهد الموقر .

بل هل نسى السيد أن كلية الآداب بالجامعة المصرية ، التى يعتز صاحب « الحلقة المفقودة » المزعومة بأستاذيته فيها ، لا يقوم عبء التدريس فى قسم اللغة العربية فيها والنهضة بها إلا على شيوخ دار العلوم ؟ فاذا

استثنى الأستاذ نفسه ، وزميلا فاضلا آخر ، لم يجد فى الجامعة إلا إخواننا الفضلاء : ابراهيم مصطفى ، وطه احمد ابراهيم ، وعبد الوهاب حمودة ، وأحمد الشايب ، وعبد العزيز احمد [1] .

على أننى أشعر بميل ملحّ لأن أُسرّ فى أذن الأستاذ كلمة بينى وبينه : هى أن يحدثنى عن الأساتذة الذين كان لهم فضل تثقيفه فى مدرسة القضاء الشرعى وفى الجامعة المصرية القديمة : فهل يسمح له أدبه المعروف بأن ينكر ما تركه فى نفسه من أثر كل من أساتذته : عاطف بركات ، ومحمد الخضرى ، وعبد الحكيم بن محمد ، وحسن منصور ، ومحمد المهدى ، وحفنى ناصف ، وغيرهم ؟

أولئك آبائى ، فجئنى بمثلهم ، إذا جمعتنا يا جرير المجامع !

وبعد فأنا نستغفر الله للأستاذ ، ولنا ! نستغفره للأستاذ لما ارتكبه قلمه من الشطط ؛ ونستغفره لأنفسنا ، لأننا نخرنا بأنفسنا وبمعهدنا نخراً ما كان لينطق به لساننا لولا أنه ساقنا إليه ، وحملنا عليه .

ولقد نكون فى غنية عن كل هذا لاقناع الأستاذ احمد امين — فما نحسب أحداً غيره فى حاجة إلى هذا الاقناع — ولكنا نطلب إليه فى أدب ودعة ، ان يلقى بنظرة إلى اساتذة دار العلوم اليوم . فهم خمسة وثلاثون إحصائياً : منهم تسعة عشر ممن تثقفوا بالثقافة الاسلامية ، كما يعترف الأستاذ نفسه ؛ ومنهم ستة ممن تثقفوا بالثقافة الغربية وحدها ؛ ثم منهم عشرة من شيوخ دار العلوم الذين تلقوا العلم فى انجلترة ، وفرنسا ، وألمانيا

(١) ولقد تغيرت الحال منذ كتبنا هذه المقالة . ولكن بما يزيدنا تأييدا فقد انضم إلى هيئة التدريس فى الجامعة المصرية من إخواننا الأستاذان محمد عطية الأبراشى ، وعلى حسنين ، بل إن الذى يحتل كرسى اللغة العربية فى كلية الآداب الآن هو أستاذنا وصديقنا العلامة الشيخ أحمد الأسكندرى .

أفلا يرى معى صديق الفاضل أن هـذه المجموعة من المدرسين تعز على كثير من المعاهد ، وتكاد تصل إلى حد الترف العلمى : واولا انى اريد ان انزه قلبى عن الطعن — ولو بحق — لقلت إنها لم تتح حتى الآن لقسم اللغة العربية بالجامعة المصرية [١] .

أليس فى هـذا العـدد من المدرسين ، وفى هـذه « التشكيلة » الغنية مايقنع أخانا أحمد أمين بأن طلبة دار العلوم تثقفهم دار العلوم بالثقافتين الاسلامية والغربية ؟ وبأن من الجرأة على الحق أن يقال فيهم إنهـم « جاهلون كل الجهل بما يجرى فى العصر الحديث من آراء ونظريات فى العلم والأدب والفلسفة لا يسمعون بكانت وبرجسون ، ولا بأدباء أوربا وشعرائها ، ولا بعلمائها وأبحاثهم . اللهـم إلا أسماء تذكر فى المجـلات والجرائد والكتب الخفيفة لاتغنى فتيلا ولا تستوجب علما » ؟

وإنى أحمـد الله أن أستطعت أن أوضح لصديق العلامة أن الذى يتحدث إلى طلبة دار العلوم عن أوربا ، وعلمها ، وعلمائها ، ليس الصحف والمجلات — مما يتعلم منه « هواة » العلم وأدعياؤه وملتقطو فتاته ؛ ولـكن الذين يتحدثون إليهم بذلك كله هم الأساتذة الاخصائيون الذين نهلوا وعلوا من أعظم جامعات العالم ، جامعات إنجلترة ، وفرنسا ، وألمانيا .

على أنى أريد أن أجارى الأستاذ ، جدلا ، فى أن طلبة دار العلوم — أو على الأصح خريجيها — لايمثلون الحلقة المفقودة الموهومة . فهل لى أن أطمع فى إنصافه بالاعتراف بأن من خريجى دار العلوم عشرات

(١) لقد تغيرت الحال كذلك منذ كتبنا مقالتنا هذه ولـكن بما يزيدنا تأييدا : فأساتذة دار العلوم اليوم سبعة وثلاثون إخصائيا : منهم عشرون من رجال الثقافة العربية الاسلامية ، وسبعة من زملائنا الفضلاء خريجى المعلمين العليا وجامعات انجلترة ، وعشرة من شيوخ دار العلوم المثقفين فى جامعات انجلترة وفرنسا وألمانيا

قد تموا دراستهم العالية فى جامعات إنجلترة ، وفرنسا ، وألمانيا ؛ وأن من الاسراف فى الطعن والتجريح أن يدعى مدع أنه حتى هؤلاء لا يمثلون ما يسميه الأستاذ « الحلقة المفقودة » . فى أمة أنا وهو نعلم عدد المتعلمين فيها ؟

وثمة غلط آخر قد وقع فيه صديقنا النابه . وأرجح الظن أن الذى أوقعه فيه هو خطؤه الأول فى الحكم علينا — لأسباب نحرض أنفسنا على اعتقاد أننا نجهلها — ذلك انه ادعى ان « إخواننا الهنود أسبق منا إلى إيجاد هذه الحلقة والانتفاع بها . » ثم اخذ يعدد لهم المفاخر ، التى يسرنا انه يصف بها شعبا شرقيا صديقا . أكثر مما يسره أنها محاولة مخفقة لتأييد رأيه . فانه مافرغ من إطرائه إخواننا الهنود على إيجاد « الحلقة المفقودة » عندهم ، حتى سطر بقلمه ما ينقض كل ذلك ، ويهدم كل ادعاء بأن حلقة مفقودة قد وجدت فى الهند . وليستمع إليه القارىء حين يقول : « ولكن الهنود يعرضون واأسفاه ذلك باللغة الانجليزية » مرحى ، مرحى ! فهل يرى الأستاذ أن تأليف الهنود فى الشريعة والتاريخ الاسلامى باللغة الانجليزية يصل السلسلة المقطوعة بحلقة ، أو يقيم على الهوة السحيقة بين الشرق والغرب قنطرة ؟ وهل يُسَر الأستاذ ويقنع إذا هو وجد فى المصريين من يؤلف بالانجليزية أو الفرنسية او الألمانية ؟ وهل يعد ذلك إيجادا للحلقة المفقودة ؟ وهل يرى فى هذا الضرب من التأليف فرقا بينه وبين كتابات المستشرقين من أمثال بَرون ، ونِكِلْسُنْ ، وجِبْ ، ودِرْ منْجِهمْ ، ودِيتْرِيصى ، وفلوجل وأضرابهم ؟

إن الحلقة المفقودة لا تتحقق فى أمة من الأمم إلا بما اشترطه الأستاذ أحمد أمين نفسه ، فى مستهل مقالته ، من أن يكون التأليف بلغة الأمة ، وبلغتها العصرية : « لا أمل فى إصلاح هذه الحال إلا بالعمل على

إيجاد الحلقة المفقودة وهى تذوق الثقافتين ، والاعتراف من المنهلين ، وإخراج أدب وعلم وفلسفة غذيت بما للعرب والإسلام من ثقافة ولقحت بما للأوربيين من ثقافة ومنهج . فيها اللغة العربية قوية رصينة ، وروح الإسلام قوية متينة . وفيها ما للأوربيين من عرض المسائل جذاب »

أرأيت ياصديقى أنك تكيل ، فى المقالة الواحدة بمكيالين ، فتعد اللغة الوطنية أساساً فى الحلقة المفقودة المصرية . ولا تقيم لها وزنا فى الحلقة المفقودة الهندية ؟

وبعد فإنى أعتذر للقراء إن كنت قد أطلت ، وأحتكم إليهم فيما سطرت ؛ وأسأل الله تعالى التوفيق لصديقى ولى فى كل ما تخط أقلامنا .

٢٠ رمضان سنة ١٣٥١ — محمد مهدى علام
١٧ ينـاير سنة ١٩٣٣ — أستاذ التربية بدار العلوم

تذييل :

يأبى الحق إلا أن يعلن عن نفسه حتى على ألسنة جاحديه ، فقد تأخر طبع هذا الكتاب بضعة أسابيع لأمور قاهرة ؛ فاذا بالأستاذ أحمد أمين يخرج علينا فى العدد الخامس من « الرسالة » باعتراف صريح يلغى به كل ما كان قد تجنى به على رجال دار العلوم فى العدد الأول . ولعل الأفضل أن أترك عبارته تتحدث عن نفسها . قال الأستاذ الفاضل يأسف على أن تراثنا الأدبى ، العربى والإسلامى ، لا يجد من يعنى به إلا قليلا من الناس ، وأن نشأنا معرض عنه : « فلما نشأ الجيل الجديد وقد تعلم أول أمره فى رياض الأطفال ، وأسلمته هذه إلى مدارس ابتدائية وثانوية يجتهد مدرسوها أن يعلموا على أحدث طرق البيداجوجيا ، ويقرأ تلاميذها فى كتب ألفت على غرار الكتب الأوربية فى الشكل والموضوع أصبح

الخريجون لا يربطون جديدهم بقديم آبائهم . وصارت الكتب الأوربية أشهى إلى نفوسهم وأقرب إلى عقولهم من كتب الأدب العربى والفلسفة الإسلامية » .

لقد صدق رأيى فى صديقى الفاضل حينما نزهته عن أن يكون على غير اتصال بالمؤلفات العصرية فى مصر : وها هو ذا يعترف فى صراحة العالم العظيم بأن مدرسينا فى المدارس الابتدائية والثانوية لا يعلمون كيفية ضرب زيد عمراً ، ولا رؤية الأسد فى الحمام ، ولا يعربون البسملة فى أول درس من دروس النحو ؛ ولكنهم يعلمون على أحدث طرق البيداجوجيا . ويعترف كذلك بأن لهم فى الأدب واللغة مؤلفات ، ولكنها ليست كما وصف فى العدد الأول من الرسالة : « إذا أنتجوا فعيب إنتاجهم أنهم لم يستطيعوا أن يفهموا روح العصر ولا لغة العصر ولا أسلوب العصر وإنما التزموا التعبير القديم فى الكتابة والنمط القديم فى التأليف ، وتحجرت أمثلتهم الخ » — بل لهم مؤلفات يصفها هو نفسه بأنها « على غرار الكتب الأوربية فى الشكل والموضوع »

لقد كان يحزننى أن أكون مع الأستاذ على خلاف فى « بديهية » كتلك التى نحن بصددها ؛ ولكننى أحمد الله الآن إذ أصبح الأستاذ يرى بعين منصفة — إلا أن يقصد من مقالته الجديدة أن يرمينا بالبعد عن الثقافة الإسلاميه (وهو ماسبق أن أثبته لنا فى المقالة الأولى) ، وبأننا من حملة لواء الثقافة الأوربية مما أدى بتلاميذنا إلى كره الثقافة العربية الإسلامية . فان كان هذا هو مايقصده الأستاذ لزمته إحدى نتيجتين : فإما أنه يناقض نفسه — وهو ما أثبتناه فى غير موضع — وإما أنه يقر اعترافيه كليهما . من أننا رجال الثقافة الإسلامية ، ورجال الثقافة

الأوربية ، ولا مندوحة له إذن عن التخلى عن رأيه السابق فى « الحلقة المفقودة » . ونحن لا نكلفه مؤونة الاعتذار إلينا ، فحسبه اعتذاره للحق أمام ضميره .

١٩ ذى القعدة سنة ١٣٥١ — مهدى علام
١٥ مارس سنة ١٩٣٣

أما بعد فهذه كلمتنا عن « الحلقة المفقودة » — استغفر الله — عن « الحلقة الموجودة » فى رجال العلم والأدب ، لم توجدها كلمتنا المتواضعة ولكنها أثبتت وجودها .

١٣ صفر سنة ١٣٥٣ — محمد مهدى علام
٥ يونيه سنة ١٩٣٤ — أستاذ التربية بدار العلوم

الوصف فى شعر امرئ القيس

لحضرة الأستاذ السباعى السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم

١ — تمهيد عام

سنكتب فى الشعر الجاهلى ، لا لأنه قديم ونحن قدامى كما يزعمون بل لأننا خدام العربية وهو فى حاجة إلى أن يخدم بعد ، ولا زالت فيه نواح تتطلب أن يكشف عنها وتستراد ؛ وسنتخير من بين فنونه الوصف ، لأنه أحفلها مادةً وأبعدها مدى وأدقها متناولا . ولأن انصراف الباحثين عنه جاء بقدر ما له من مكانة فبقى مغموراً غير معروف ، يعده العادون ذيل الفنون ، وهو لها الهامة والرأس والمرجع والأصل . وليس هذا الانصراف عن عيب فيه ، بل لأنه تناول أموراً بدوية بعدت إلى قدر ما عن الحضر . فهجرت أغراضه ومن ثم أهملت فاستعجمت الفاظه . ولكن ما ذنب العرب فى جاهليتها ينسى لذلك أهم فنونها ، فيضل كثير من آيات حذقها وعبقريتها .

نعم سنتكلم فى الشعر الجاهلى وسنتخير من بينه الوصف لأن تلك الفنون لم تدع خلقاً من أخلاق العرب فى ذلك العهد إلا وصفته ، ولا وجداناً من وجداناتهم إلا أظهرته كما لم تدع فى بيئتهم كائناً محساً دون وصف ، ولا فى عرفهم شيئاً من عقيدة أو عادة دون ذكر . وإذ كان الوصف معناه الكشف والاظهار ، فقد جاء فى عمومه باباً واسع النطاق صالحاً لأن يضم إليه كل ما إليه أشرنا . ولكن العرف الأدبى مال به عن ناحية المعنى إلى ناحية الحس ، فأصبح يتناول أول ما يتناول المرأة

وما يتعلق بها من هذه الناحية ثم يتناول كل ما شملته البادية العربية من طبيعة أرض ولون سماء ومن أحداث جو وأصناف نبات ومن حيوان يدب على الأرض وطير يصعد فى السماء . وقد تفاضل الشعراء فيه كما تفاضل الناس فى سائر الأشياء ، فمنهم من قصرت إجادته على شىء دون شىء كأبى دواد الايادى فى وصف الخيل وطرفة بن العبد فى وصف الابل والشماخ بن ضرار فى وصف الحمر الوحشية والقسى وأوس بن حجر فى وصف القسى وسائر عدد القتال والأعشى فى وصف الخمر وغيرهم ممن عرفوا باسم الشعراء الوصافين لما تعرضوا له مجيدين ، ومنهم من أجاد فى كثير من الأوصاف وإن فضل نفسه فى بعضها كامرىء القيس فى معظم ما ذكرنا ولذا جعلنا الوصف فى شعره أساساً لما سنتناوله من كلام عن الوصف فى الشعر الجاهلى عامة .

ب — تمهيد خاص

قلنا إننا سنتخذ الوصف فى شعر امرىء القيس لشموله أساساً لما سنتناوله من كلام عن الوصف فى الشعر الجاهلى فوجب أن نمهد ذلك بتمهيد خاص يجمل لنا كيف عاش ويرينا فنون وصفه لنتكلم عنها فنا فنا .

نشأ امرؤ القيس فى بيت ملك عتيد صفا له الدهر دهراً فكان أبوه ملكا وأعمامه ملوكا ، وكان يتصل بوساطة هذا البيت ببيت المناذرة صلة نسب فى القحطانية وصلة مصاهرة فى أن هندا أم عمرو بن المنذر المعروف بعمرو بن هند كانت عمة أبيه حجر ، وبالمصاهرة أيضاً كان يتصل ببنى شيبان أعز بيت فى بكر لأن جده الحارث كان على ابنة عوف بن محلم الشيبانى كما يتصل كذلك بأعز بيت فى تغلب فان أمه فاطمة بنت ربيعة كانت أخت كليب ومهلهل . ففى هذه البحبوحة والسعة كانت نشأته ولكنه انصرف بكل نفسه إلى ناحية اللهو والاستمتاع بما يلهو ويستمتع

به أبناء الملوك العابثون فكان يتنقل فى أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذها وكلما صادف غديراً أو روضة أقام فنحر لهم ثم خرج فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا وشرب وسقاهم وغنته قيانه وفى كل ذلك يقول الشعر غير متحرج من قول ولا مقلع عن غى حتى بذ شعراء عصره جميعاً فى كل ماتعرض لهمن وصف النساء واللهو بهن ووصف الخيل والصيدبها ووصف مظاهر الطبيعة وأهمها فى هذه البلاد المطر بما يتقدمه من برق ويعقبه من سيل إلى غير ذلك مما يحوم حول هذه النواحى الثلاث ويتسق وتيارها فى كل ما تتطلبه حياة العبث واللعب من ذوى العزة واليسار النائين بطباعهم عن مهام الجد ومشاغل المسئولين . هكذا كان إلى أن قتل أبوه فاقبل على حياة أخرى نقلته من تملك وسلطان إلى خضوع وهوان ، ومن وجد وسعة إلى ضنك وفاقة ، ومن عزة وهيبة إلى مذلة ورهبة ، ومن غير ذلك إلى غير ذلك ، مما جعله فى حياته الثانية شخصاً غير شخصه الأول وجعل شعره يجيء ملائماً لهذه الحياة الجديدة بقدر مخالفته لحياته القديمة فعدل عن الأغراض الثلاثه المتقدمة إلى أغراض أخرى يتطلبها الاحساس بالتبعة قد ألقيت على عاتقه فى الأخذ بثأر أبيه ودأبه فى هذه السبيل يتذوق حلاوة النصر حيناً ويتجرع مرارة الهزائم أحياناً ثم انتهاؤه من كل ذلك إلى أن يصبح هائما على وجهه مفزعا مطلوبا يقصد هذا فيصده ويطنب إلى ذاك فيضمه ولكنه عما قليل يلفظه حتى نبت به الجزيرة على رحبها فخرج مستنجداً قيصر الروم إذ ذاك فلم ينجده وفى عودته من عنده خائبا وافاه جله بعيداً عنه وطنه وأهله . ففنونه فى هذه الحياة كانت الوعيد والتهديد والتحمس والتفاخر ، وكانت المدح والشكر والمعاتبة والهجو ثم كانت شكوى أيام جارت ، وتذكر عزة سلفت . فكأنها ثلاث نواح حاضرة تقابل ثلاثا غابرة وعلى هذا النسق سيكون ترتيب الكلام .

١

ناحية المرأة والغزل

جاءت حياة امرىء القيس الأولى أشد ملاءمة للوصف وجاء الوصف أغلب عليها ولما كانت معلقته قد قيلت فى هذه الحياة قطعاً فقد جاءت طرفة فنية فى الوصف ومرآة صادقة لألوان تلك الحياة ولهذا رأينا أن نتخذها أساساً نبنى عليه ماقال من وصف فى غيرها بادئين كما بدأ بالجانب النِّسوى منها .

ترينا المعلقة بجلاء ووضوح وصراحة ومكاشفة أن صاحبها عاش تلك الحياة لاهياً لاعباً قد أرخى لنفسه العنان إلى غير حد فلم يتكلف فى إحساس ولم يتستر وراء تعبير بل ترك بيانه طوع شعوره لاسلطان لعقله على هواه ولا فكاك للسانه عما يريد قلبه فهى من ناحيته تمثل نفساً إباحية ومن ناحيتها تصلح النواة الأولى لما يسمى الآن بالأدب المكشوف وليس بدعا من خليع مستهتر كامرىء القيس يبيح لنفسه فى عجب وخيلاء وتفاخر وتباه أن يحتبس على عنيزة ابنة عمه وأترابها ملابسهن يوم الغدير بدارة جلجل ويأبى التسليم فيها إلا ملبسا ملبسا لواحدة واحدة تأتيه عارية مجردة وهو لذلك جد طرب وبه جد فخور . نقول ليس بدعا منه أن يقول فى الأدب المكشوف وقد نحر ناقته ليركب مع ابنة عمه وقد ركب فعلا مثل قوله :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات إنك مرجلى
تقول وقد مال الغبيط بنامعا عقرت بعيرى ياامرأ القيس فانزل
فقلت لها سيرى وأرخى زمامه ولا تحرمينى من جناك المعلل

ثم لايخجل أن يفحش فيقول :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم محول
إذا مابكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتى شقها لم يحول

وهذه الناحية المكشوفة أكثرمنها فى شعره الذى قاله فى سنيه الأولى وكان يسمى نفسه من أجلها فاجراً فاخراً كقوله :

حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا وما إن من حديث ولا صالى

وسيأتى ذكر هذا عند الكلام على نظائره من المعلقة فى موضوع اليوم

بدأ امرؤ القيس معلقته بخير مطلع عرف على غير مثال سابق فى وصف الاطلال والدمن والوقوف عليها والبكاء على أهلها الراحلين بعد تعرف معالمها واستبانة رسومها وفى وصف مرارة البين ووقوف الأصحاب عليه يؤسونه وهو لايرى من شفاء غير سفح العبرات حيث يقول :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل
كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل
وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لاتهلك أسى وتجمل
وإن شفائى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول

وهذا مطلع أجاد فيه التشبيب ووضع له أسساً اتبعه الشعراء فيها من الوقوف على منزل الحبيب وحده تلك الحدود الضابطة وتعرف معالمه ورسومه على الرغم مما نسجته عليها الرياح جنوبية وشمالية ومن انتحابه غداة البين انتحاباً يسيل عبراته كما تسيلها رائحة الحنظل من ناقفه وهو تشبيه منتزع من جوف البادية وقرارتها، ومن أن موقفه هذا كان محل العطف من صحبه إذ وقفوا مطيهم عليه متوسلين أن يتجمل ولا يهلك أسى، ومن أن مطلبهم هذا كان عزيز الاجابة لأنه يرى شفاءه فى العبرة المهراقة ويرى

أن لا معول ولا سلوى عند رسم قد درس واحتمل أهله. ولم يقف عند حدود هذا الافتنان فى مطالعه على تقاربها بل كان يودع كل مطلع من المزايا مايفضل به غيره فهذا المطلع عينه قد حكاه فى عينيته التى قالها وهو مريض فى طريقه إلى قيصر الروم ولكنه خالف فجعل العفاء فيها حقيقة واقعة لطول العهد، بينا جعل الرسوم هنا ظاهرة باقية لحداثته وهذا إذ يقول :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم عفت آياته منذ أزمان
أتت حجج بعدى عليه فأصبحت كخط زبور فى مصاحف رهبان
ذكرت بها الحى الجميع فهيجت عقابيل سقم من ضمير وأشجان
فسحت دموعى فى الرداء كأنها كلًى من شَعيب ذاتُ سح وتهتان

فهذا مطلع لذكرى تقادم عهدها إذ كانت هذه القصيدة فى حياته الثانية بخلاف مطلع المعلقة التى كانت فى حياته الأولى ولذلك يقول عفت آياته منذ أزمان ويقول أتت حجج بعدى عليه فأصبحت تلك الآيات كخط صحيفة فى مصاحف الرهبان وهى ذات قدم وخفاء، وانظر إليه يخالف فى وصف غزارة دمعه عما قال فى المعلقة آنفاً فيجعل عينيه تسحان الدمع سحا كفتق المزادة الكبيرة تشعب وتفرى منها كلاها . وله مطلع آخر خالف فيه هذين فأجاد وأبدع وهو قوله فى الطلل يتم دروسه وعفاؤه حتى تنكره العين ولكن النفس تدركه بما لها من شغف باهله وتمام صلة باصحابه وهو ابتكار منه فى إيجاز وحسن أداء قال :

لمن طلل درست آيه وغيره سالف الأحرس
تنكره العين من حادث ويعرفه شغف الأنفس

وكما ابتكر هذه الاجادات فى وصف الطلول والوقوف عليها ابتكر كذلك تحية الربوع والأطلال والدعاء لها بما يرجو من نعيم مع التحسر

على عدم إجابتها له فى خطابه إياها وعلى عدم تحقق متمناه لها وذلك فى كثير من قصائده كالذى يقول فى مطلع لاميته وهو :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى
وهل يعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم مايبيت باوجال
وهل يعمن من كان أحدث عهده ثلاثين شهراً فى ثلاثة أحوال

إلى غير ذلك من المطالع التشبيبية التى استنها للشعراء واستحسنوها من بعده وعملوا على محاكاته فيها ومع ذلك لم يزيدوا بل لم يصلوا ولم يقاربوا.

غادر امرؤ القيس هذا التشبيب إلى ذكر محبوباته يصف توزع هواه بينهن من أم الحارث وجارتها أم الرباب وغيرهما ممن أجمل الكلام عنهن إجمالا قبل أن يخلص إلى عنيزة ابنة عمه فالى فاطمة العامرية العذرية فالى بيضة الخدر التى دب إليها ، وكل ذلك فى الجزء الأول من معلقته فأرانا بهذا كيف يكون الحب المفرق على مغانى الحسن والجمال يلهو به صاحبه حيناً مع هذه وحيناً مع تلك حتى لكأنه قد وضع بهذا النوع من الوصف أساس الغزل الاباحى والحب المصنوع الذى حاكاه فيه على ضآلة بعض الشعراء الجاهليين واقتفى أثره مجيداً فيه عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة بعد حتى تولى زعامة ذلك النوع من الحب مناظراً جميل بن عبد الله بن معمر فى زعامته الهوى العذرى ، فعمر من بحر امرىء القيس كان يغترف ومن غرسه كان يجنى فى الأوصاف الحسية يغرى بها الغوانى إغراء وفى الزورات الليلية ينتهب لذته معهن انتهابا وهذا بعض ماقال امرؤ القيس فى ذلك قال فى المعلقة يصف دبيبه إلى محبوبته ويتخلص منه إلى وصفها نفسها :—

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهوبها غير معجل
تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا على حراصاً لو يسرون مقتلى
إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها ... لدى الستر إلا لبسة المتفضل
فقالت يمين الله مالك حيلة ... وما إن أرى عنك الغواية تنجلى
خرجت بها أمشى تجر وراءنا ... على أثرينا ذيل مرط مرحل
فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى ... بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل
هصرت بفودى رأسها فتمايلت ... على هضيم الكشح ريّا المخلخل

فجعل محبوبته منيعة المنال حتى يكون إقدامه عليها إقدام شجاع بطل يقتحم الليل فى سراه ويتجاوز الأحراس حراصا على قتله. وعرف كيف يتحدث عن لسانها حديث الخائفة عليه الطامعة فيه التى تدعه يخرج بها ماشيا فتجر على أثره وأثرها ذيل مرطها إخفاء وتلبيساً كما تدعه يجتاز بها ساحة الحى وينتحى مكانا ذا ستر واكتنان ثم أحسن الانتقال من ذكر هذا الخروج الذى دب إليه دبيبا إلى الدخول فى وصفه لها إذ هصر فوديها فتمايلت عليه بكشح نحيل هضيم ومخلخل ريان ملء حيث يقول فى تفصيل هذه الأوصاف المكملة للوصفين السابقين

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ... ترائبها مصقولة كالسجنجل
كبكر المقاناة البياض بصفرة ... غذاها نمير الماء غير المحلل
تصد وتبدى عن أسيل وتتقى ... بناظرة من وحش وجرة مطفل
وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش ... إذا هى نصته ولا بمعطل
وفرع يزين المتن أسود فاحم ... أثيث كقنو النخلة المتعثكل
غدائره مستشزرات إلى العلا ... تضل العقاص فى مثنى ومرسل
وكشح لطيف كالجديل مخصر ... وساق كأنبوب السقى المذلل
وتعطو برخص غير شثن كأنه ... أساريع ظبى أو مساويك إسحل
وتضحى فتيت المسك فوق فراشها ... نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل
تضىء الظلام بالعشاء كأنها ... منارة ممسى راهب متبتل

إلى مثلها يرنو الحليم صبابة إذا ما اسبكرت بين درع ومجول
تسلت عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادى عن هواك بمنسل
ألا رب خصم فيك ألوى رددته نصيح على تعذاله غير مؤتل

فهو قد أقبل إلى تلك المرأة التى جعلها بيضة فى نقاء اللون ونعومة الملمس ونسبها إلى الخدر إبقاء على محاسنها وضنا من أهلها بتبذلها، والتى جعل كشحها هضيما ومكان خلخالها ريان مليئاً فلم يترك شيئاً يحسن وصفه لذوى الحب المادى إلا وصفه مجيداً. فقد جعلها مهفهفة وهى اللطيفة الخصر الضامرة البطن غير مفاضة والمفاضة، العظيمة البطن المسترخية اللحم، وجعل ترائبها وهى موضع القلادة من الصدر فى الصقل والرونق كالمرآة جلاء وإشراقا، وعاد فشبهها بالدرة المشوب بياضها بالصفرة على أن يكون نموها فى ماء صاف غير مطروق. ثم أبقى على أسالة خدها معرضة ومقبلة وأعارها عين بقرة من حسان البقر متقية مطفلة وأعطاها جيد رئم يعشق لاعتدال طوله ويحلى لثراء صاحبته كما جعل فرع شعرها كالفحمة فى سواده وقنو النخلة فى تعثكله وأنها لغزارته قد نوعت بين أشكاله دلا فأضلت عقاصه فى مثناه ومرسله ثم جعل كشحها فى لطافته وتخصره جديلا، وساقها فى انسجامه ولونه أنبوباً وأصابعها أساريع ظبى أو غصون أراك، وأنها ربة نعمة ورفه يتمتع فراشها بفتيت المسك وتتمتع عليه بنوم الضحى ولم ينس أن يعقب على هذه التفاصيل بجعلها فى إشراقها جملة منارة راهب تبدد ظلام العشاء، وأن مثلها إذا تبخترت فى ثوب وسط ليس بالدرع الطويل ولا المجول القصير يرنو الحليم صبابة إليها، فلا غرو إذا لم يتسل عنها وإن تسلى غيره وإذا رد فيها ذا الخصومة لها مهما صدق نصحه واشتد تعذاله

وقال من لاميته يذكر الدبيب أيضا:

سموت إليها بعد مانام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

فقالت سباك الله إنك فاضحى ... ألست ترى السمار والناس أحوالى
فقلت يمين الله أبرح قاعـــداً ... ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى
حلفت لهـا بالله حلفة فاجر ... لناموا وما إن من حديث ولا صالى
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت ... هصرت بغصن ذى شماريخ ميال
وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ... ورضت فذلت صعبة أى إذلال
فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها ... عليه القتام سيء الظن والبـال

وليس بعد هذا رفق فى التحدث إلى النساء والحكاية عن ترويضهن وإذلالهن فى عبارات تذوب رقة وتسيل تأثيراً. وله من عينيته ذكر لهذا الدبيب كذلك، خلص إليه بعد أن أحسن الوصف لما صار يراقبه من خلات العيش إذ ودع الصبا فأجاد فى الغرضين حيث يقول:

وأصبحت ودعت الصبا غير أننى ... أراقب خلات من العيش أربعا
فمنهن قولى للنـــدامى ترفقوا ... يداجون نشاجا من الخمر مترعا
ومنهن ركض الخيل ترجم بالقنا ... يبادرن سربا آمناً أن يفزعا
ومنهن نص العيس والليل شامل ... ييممن مجهولا من الأرض بلقعا
خوارج من برية نحو قرية ... يجددن وصلا أو يرجين مطمعا
ومنهن سوف الخود قد بلها الندى ... تراقب منظوم التمائم مرضعا
يعز عليهـا ريبتى ويسوءها ... بكاه فتثنى الجيـد أن يتضوعا
بعثت إليها والنجوم ضواجع ... حذاراً عليها أن تهب فتسمعا
فجاءت قطوف المشى هيابة السرى ... يدافع ركناها كواعب أربعا
تقول وقـد جردتها من ثيابها ... كما رعت مكحول المدامع أتلعا
وجـدك لو شيء أتانا رسوله ... سواك ولـكن لم نجد لك مدفعا
تصـد عن المأثور بينى وبينها ... وتثنى عـلى السابرىّ المضلعا
إذا أخذتها هزة الروع أمسكت ... بمنكب مقدام على الهول أروعا

وهذا لا يقل عن سابقه دقة وصف وحسن تناول ، وله غيرهما كثير يمثل هذه الناحية من الدبيب إلى النساء ووصف النساء تمثيلا يضم إلى انتهاب اللذة رفاهة العيش ووفرة النعيم ، وإلى سمو المنزلة شمائل الملك وعظمة الذات ، ومن هذا المترع كان يكرع ابن أبى ربيعة زعيم الغزل الاباحى بعد كما تقدم،على أن امرأ القيس ما كان ينجو خلال هذه التخمة بالملذات من هجر وقلى يضطره إلى المعاتبة والاستعطاف فيبلغ فى وصف ذلك مبلغا يحله الجانب العذرى من الحب محل الرضا والاعتبار كأن يقول يخاطب فاطمة تلك فى دلها عليه

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل   وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
وإن تك قد ساءتك منى خليقة   فسلى ثيابى من ثيابك تنسلى
أغرك منى أن حبك قاتلى   وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربى   بسهميك فى أعشار قلب مقتل

وإلى هنا نقف من هذا الجانب النسوى الآن حتى نتم مالامرىء القيس من أوصاف ثم نعود بعد إلى مكانته فى كل وصف من حيث استعانة الشعراء به فيه ؟

فى القرآن الكريم

لحضرة الأستاذ عبد المغنى المنشاوى
المدرس بدار العلوم

ذاك نور البدر هادى المدلجين ْ   وجلاء الشك أم نور اليقين ْ
أو ضياء الشمس فى جَلْوتها   قد تبدّت فتنةً للناظرين
أو صفاء الروح يُحيي سرُّها   ذلك المخلوقَ من ماء وطين
أو مُنَى الأنفس فى مِحْنتها   أملُ اليائس سلوان الحزين
أو طبيبٌ سلَّ فى مبضَعه   عللَ الأحقادِ فى رفق ولين
بل كتابُ الله فاستوصَوْا به   إنه تنزيل رب العالمين

٭٭٭

كان خُلْقَ المصطفى أصدقْ به   من أمينٍ جاءه الروحُ الأمين
خلّفَ المصحف فينا هاديا   أين منه فَلَقُ الصبح المبين
أنجماً نقرؤها أم أحرفاً   قد أضاءت فى وجوه القارئين

٭٭٭

ياشفاء القلب من أوصابه   وخدينَ النفس إن عزّ الخدين
قد نظمتُ الروحَ والقلبَ معاً   فيك ألحانا بها أنت القمين
علّ هذى النفسَ تجلو ساعةً   بعضَ أسرار تحامتْها الظنون
فترى القرآن فى ألواحه   وترى ثَمّ الكرامَ الكاتبين
وترى جبريل فى تبيانه   يُقرىء النزيلَ خيرَ المرسلين

ذاك صوتُ الله يانفسُ سرى   فشجاهذا الورى ، هل تسمعين؟

☆ ☆ ☆

أيهـا الشعرُ تقـدَّمْ خاشعا   وانظِمِ الشِّعْرَى لهاجى الشاعرين
أوسعَ اللاهـينَ ذمًّا وكسا   َطيلَسانَ الحمد شعرَ الذاكرين
مرحباً بالشعر يغدو بحرُه   منبعَ الحـكمة والسحر المبين
ورد الذكْرَ معيناً صافيا   فشفى الغـلة من هـذا المعين
وانثنى ينضَحُ مسكا عجباً   عَرْفه الايمـانُ والخُلْق المتين

☆ ☆ ☆

يا كتابَ الله ياوحىَ السما   هاك من شعرىَ وَحْىَ الأربعين
كيف يقوى الشعرُ أن يرقى إلى   كُنهك المعجز أم كيف يُبين ؟
كان سحبانَ فأمسى باقـلاً   رُبَّ عجزٍ جازَ جهدَ القادرين
أقفرت أبياتُه فارضخْ له   بالمعانى الصِّدْق والقول الرصين

☆ ☆ ☆

ياخطيباً بَهَتَتْ حجتُه   بلسان الحق زورَ المشركين
فبُهتَ بالفصحى بيانا عجباً   فتألَّوْا أنك السحر المبين
ثم خالوك جنوناً ما لهم   كيف يَقْضُون أسحرٌ وجنون
ثم قالوا بل حـديث مفترًى   أفترى مثلَك رهطُ المفترين
هزىءُ الحمْقى فحاكَوْا سوَرًا   جَعلتهم هُزْأةً للهازئين
ودَهَى المفصحَ فيهم خَرَسٌ   يالخزىِ المفصحين المخْرَسين

☆ ☆ ☆

أنشأ الأمىُّ يُمليك فما   خطَّكَ الكتابُ إلا ساجدين

شَاهَ وجهُ الظن لايحلمْ به | ما أمينُ الغيب فيه بظَنين
آيةُ الجبّار من بَدّلها | اخذَ الجبّارُ منه باليمين

✲✲✲

سائل الأنصابَ ماذا كبَّها | هل تلتْ آياً فتُلَّتْ للجبين
واسأل الآداب من شاد لها | غيرك المعقلَ والحصن الحصين
واسأل الألباب من صرّفها | فى السموات العلاَ والأرَضين
صفدَّتْ فى السجن حتى حطَّمتْ | يدُك البيضاء أصفادَ السجين

✲✲✲

تضربُ الأمثالَ ضرباً معُجزا | يكشف الريبةَ عن وجه اليَقين
فنرى الدنيا متاعا هيّناً | ينقضى فى مثل عُمر اليَاسَمين
ونرى الجَنات فى روضاتها | يخطر الأبكارُ منْ حور وعين
برزت أشجارُها مزْهوَّةً | بجناها الغضّ تغرى الآكلين
ويكاد الحسّ يسقينا بها | كأسَ خمرٍ لذّةٍ للشاربين
جلّ أمثالك أن يُوهِنَها | ضربك المضْعوفَ أوضربُ المهين
من بعوض أو ذباب قرنه | كذباب السيف قطاع الوتين

✲✲✲

أمرُك الشُّورَى فهلْ من جاحدٍ | أنّ شُورَاك أداة المصلحين
تهتف الدنيا بها فى نَشوةٍ | أنت عيدُ الشعب عيدُ المالكين
شرعُكَ الخالد قد سطّره | مرقمُ الدهر على رَقّ السنين
شاهدت عيناه دنيا فضله | فى قرون آه لو ردّ القرون

✲✲✲

أينَ شَرْعُ الناسِ من شَرْعِ الذى خلقَ الناسَ وسَوّى العالمين !
شرعُهم يُمليه بُغْضٌ وهوًى والهوَى والبغضُ غلُّ الشارعين
شرعوا ظلما وسنّوا غرضا ساء شرعُ الظالمين المُغْرضين
شأنهم فى كل يوم بدعةٌ ألبسوها الدين والحق اليقين
عُصْبَةَ الغىّ أغيًّا بعد ما بيّنَ الرشدَ الكتابُ المستبين
جلَّ دين الحق عن بهتانكم وتعالى الحقُّ أن يرضاه دين
فطرة الخلاّق ، ما أنْصفَهَا مُشترِى الحَصْباء بالدُّر الثمين
عالمُ الأسرارِ مَنْذَا بعدَه يصفُ البلسمَ للداء الدفين

✡ ✡ ✡

لك فى القصة فنٌّ عَجَب يُبرز الغائبَ فى زىِّ الرهين
طَفِق التاريخ يعدُو خلفَه مُسرفَ الظن فخانَتْه الظنون
واستبانا موجزا أو مُطنبا يالعىِّ الموجزين المطنبين
نقطعُ الدنيا به فى وثْبة ونرَى باللمح آلافَ السنين
ونعيد الدهرَ طفلاً لاهيا يتنزّى فى حجُور الأولين
قَصَصٌ يُروَى لنا أم مشهدٌ سحرُه قيدُ عيون الناظرين
يَنفُضُ الأكفانَ عمن ذهبُوا لنرى بالعين دُنيا الذاهبين
فنرى آدمَ من جنّتِه خارجًا يلعنُ إبليسَ اللعين
ونرى نوحا طغَى طوفانه فطوى عمر الطغاة الساخرين
ونرى يعقوبَ فى محنته راجيًا بالصبر عقبَى الصابرين
ونرى فرعونَ فى طغيانه ونرى موسى وسحرَ الساحرين
سُحِر السحرُ فأهوَى ساجدا واحتوى فرعونَ قبرُ المُغْرقين

كم قرون أصبحتْ أجيالها ثم أمستْ مثلاً للآخرين
صوّر الفُرقانُ منها عبراً كِدْنَ يُلمَسْنَ بأيدى اللامسين

* * *

صدق اللهُ فهذا ذكرُه فيه نورٌ وهدًى للمتّقين
هو ركنُ الدّين والدنيا معًا فاخطُبوا شُورَاه فى دنيا ودين
حوّطوا للدين عِرّيسته وازجروا الأكلبَ أن تغشى العرين
أحفظوا القرآنَ أبناءكمُ يحفظِ القرآن دينَ الحافظين

* * *

أيها المشتاقُ نجوى ربّه خاطب اللهَ به فى كلّ حين
واعبد الرحمنَ فى قرآنِه تغدُ بالقرآنِ زَين العابدين

مجمع اللغة العربية الملكى

معاونته على تحقيق أغراضه

لحضرة الأستاذ مصطفى السقا
المحرر بالمجمع اللغوى

---

١ — مقدمة

من المآثر التى يفاخر بها عهد حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول إنشاء مجمع اللغة العربية الملكى، للقيام على شئون هذه اللغة الشريفة وجعلها أقدر على الوفاء بحاجات الحياة الحاضرة، ومجاراة اللغات الحية. وهذه مكرمة جليلة لصاحب العرش المُفَدَّى، أعلى بها شأن العربية بين اللغات، ورفع قدر مصر بين الأمم: ومنة طوق بها جيد كل عربى فى مشارق الأرض ومغاربها.

٢ — أغراض المجمع

أنشئ المجمع تحقيقاً لأمنية كانت تتردد فى نفوس الشعوب العربية منذ أكثر من نصف قرن، وقد بينت المادة الثانية من المرسوم الملكى الخاص بانشاء مجمع ملكى للغة العربية أغراض هذا المجمع فقالت:

« أغراض المجمع هى:

(ا) أن يحافظ على سلامة اللغة العربية، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها، ملائمة - على العموم — لحاجات الحياة فى العصر الحاضر؛ وذلك بأن يحدد — فى معاجم أو تفاسير خاصة، أو بغير ذلك من الطرق — ماينبغى استعماله أو تجنبه: من الألفاظ والتراكيب

(ب) أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية ، وأن ينشر أبحاثاً دقيقة فى تاريخ بعض الكلمات ، وتغير مدلولاتها .

(حـ) أن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية » .

* * *

وهذه المادة تتضمن أغراضاً أربعة :

الغرض الأول : المحافظة على سلامة اللغة ؛ وتتحقق هـذه السلامة بأمرين : المحافظة على متن اللغة ، والمحافظة على أصولها وقواعدها . ومن العناية بالمتن استعمال الكلمات فى معانيها ، وإحكام الصلة بين حقيقيها ومجازيها ، ومحاربة العامىّ والدخيل ، حتى لا يذهب بجمال العربى الفصيح ومن العناية بالقواعد محاربة الأساليب الملتوية الأعجمية ، التى تطغى على الأساليب العربية الصحيحة ، فتشوه جمالها ، وتذهب بقوتها ورصانتها .

والغرض الثانى : جعل اللغة العربية وافية بمطالب الحياة فى العصر الحاضر ؛ وذلك بأن تؤدى معانى العلوم والفنون ، مما يتجدد بتجدد الزمان ، ومقتضيات الأحوال فى سهولة ويسر ، ويتحقق ذلك بوضع مصطلحات لكل علم وفن ، وبالبحث فى الوسائل التى تجعل اللغة سهلة ميسورة على القارئين والكاتبين . وهـذا الغرض أولى أغراض المجمع بالتقديم ، وأحقها بالرعاية ، وأجدر أن يتعاون عليه المشتغلون بالعلوم والفنون ، من عرب ومستعربين ، ليرجع إلى هـذه اللغة مجدها الغابر ، وتسترد ماضيها المجيد ، فتصبح لغة العلم والفن ، كما هى لغة الأدب والدين

والغرض الثالث : تأليف معجم كبير ؛ يكون ديواناً عاماً للغة العربية ، يجمع فصيحها وغريبها ، ونادرها ، ويبين أطوار استعمال الكلمات ،

وماطرأ على بعضها من تغير الدّلالات. وتأليف هذا المعجم أسمى أغراض المجمع، وأعظم خدمة تُسْدى إلى اللغة العربية. ولا يمكن أن يتم وضعه فى بضع سنين، وإنما يستغرق أزماناً طويلة، ويتطلب جهوداً ومساعى كثيرة.

والغرض الرابع: درس اللهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية دراسة علمية؛ ولهذه الدراسة فوائد شتى أبان عنها الأستاذ نليتو أحد أعضاء المجمع العاملين فى بحث القاه باحدى جلسات المجمع، ويمكن إجمال تلك الفوائد فى الأمور الآتية:

(١) توضيح بعض الألفاظ الفصيحة، التى لم تشرح فى المعاجم شرحا كافيا، فظلت يحيط بها الظلام ويكتنفها الغموض، وقد جمع مستشرق سويدى طائفة كبيرة من أسماء النبات التى لم تشرح فى المعجمات، واستعان على تفسيرها وشرحها بمعرفته اللهجة اليمنية: إذ وجد معظم تلك الأسماء مستعملة على ألسنة العامة فى بلاد اليمن.

(٢) المساعدة على فهم مسائل مبهمة فى اللغة الفصيحة كبعض قواعد الصرف والنحو.

(٣) معرفة مادخل اللغة الفصيحة من الألفاظ العامية.

(٤) معرفة أصول الكلمات العامية المختلفة، ثم الأصل الذى تنتمى إليه جمهرتها.

(٥) مقارنة اللهجات بتصنيفها أصنافا على حسب نشأتها وصلات بعضها من بعض.

(٦) معرفة انتقال الجيوش، وارتحال القبائل، واختلاط بعض الأمم ببعض.

(٧) دراسة الحياة العقلية والنفسية والاجتماعية لقبيل من الناس.

(٨) دراسة تاريخ بعض الشعوب البائدة ·

وقد بينت اللائحة الداخلية هذه الأغراض فى المواد الثلاث الأولى، ونؤثر أن ننقلها هنا إيضاحا لمادة المرسوم، وهذه نصوصها :

(١) على المجمع أن يحافظ على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون، ملائمة لحاجات الحياة فى هذا العصر. وله أن ينظر فى قواعد اللغة، فيتخير — إذا دعت الضرورة — من آراء أئمتها ما يوسع دائرة أقيستها، لتكون أداة سهلة للتعبير عن المقاصد العلمية وغير العلمية ·

(٢) للمجمع أن يستبدل بالكلمات العامية والأعجمية التى لم تعرب — غيرها من الألفاظ العربية · وذلك بأن يبحث أولا عن ألفاظ عربية لها فى مظانها · فاذا لم يجد بعد البحث أسماء عربية لها، وضع أسماء جديدة بطرق الوضع المعروفة : من اشتقاق، أو مجاز، أو غير ذلك · فاذا لم يوفق فى هذا، التجأ إلى التعريب مع المحافظة على حروف اللغة وأوزانها بقدر الطاقة

(٣) يقوم المجمع بوضع معجمات صغيرة لمصطلحات العلوم والفنون وغيرها تنشر تدريجا، وبوضع معجم واسع يجمع شوارد اللغة وغريبها ويبين أطوار كلماتها، كما ينشر تفاسير وقوائم لكلمات وأساليب فاسدة يجب تجنبها ·

ويقوم ببحث علمى للهجات العلمية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية .

٣ — لجان المجمع

ألف المجمع لتحقيق أغراضه السابقة عدة لجان، بعضها دائم : يعمل طول السنة، وبعضها غير دائم، والذى تهم معرفته هو اللجان الدائمة وهى سبع :

١ - لجنة العلوم الرياضية . وتبحث فى مصطلحات الحساب ، والهندسة بأنواعها ، والجبر ، وعلم الآلات والحيل (الميكانيكا) والفلك وما إلى ذلك .

٢ - لجنة العلوم الطبيعية والكيميائية ، وتبحث فى :

ا - مصطلحات الطبيعة بأقسامها : من بصريات وكهرباء ومغناطيس ، وما إلى ذلك .

ب - علم الكيمياء بانواعه .

٣ - لجنة علوم الحياة والطب : وتبحث فى المواليد الثلاثة : (الجماد والنبات والحيوان) وفى وظائف الأعضاء وما إليها ، وفى الطب بانواعه

٤ - لجنة العلوم الاجتماعية والفلسفية . وتبحث فى :

ا - علوم الاجتماع ، كالحقوق ، والاقتصاد ، والسياسة ، والإدارة ، ووصف الشعوب .

ب - العلوم الفلسفية : كعلوم النفس ، والمنطق ، والأخلاق والتصوف ، والالهيات ، والدينيات .

٥ - لجنة الآداب والفنون الرفيعة ، وتبحث فيما يأتى :

ا - مصطلحات التاريخ والجغرافيا .

ب - ما يتعلق بالمدينة ومسالكها ، والمنزل وأجزائه وأدواته ونحو ذلك .

حـ - مصطلحات الصناعات والحرف وما إليها .

ء - مصطلحات الفنون الرفيعة ، مثل الرسم ، والتصوير ، والنحت ، ونقر الخشب ، والموسيقى بأنواعه وآلاته وأجزاء آلاته ، والتمثيل ، والخيالة ، والشعر .

هـ – تصحيح الألفاظ والأساليب التى يغلط فيها .

٦ – لجنة المعجم : وقد بينا فيما سبق وصف المعجم التاريخى الكبير الذى ذكره المرسوم فى الفقرة (ب) من المادة الثانية .

٧ – لجنة اللهجات : وتقوم بدرس اللهجات العربية الحديثة فى مصر وغيرها من بلاد الشرق دراسة علمية كما جاء فى الفقرة (حـ) من المادة الثانية من المرسوم الملكى . وقد بينا مجمل الفوائد التى توصل إليها تلك الدراسة فيما سبق .

ولابد من التنبيه على أن اللجان الخمس الأولى إنما هى لجان لغوية فهى تنظر فى العلوم والفنون والآداب من حيث المصطلحات المستعملة فيها ، لتنظيم العلاقة بين ما يجرى به العرف ، وما تطلبه اللغة .

٤ – ماذا عمل المجمع فى الدورة الماضية ؟

يتساءل الناس فى كل مكان : ماذا عمل المجمع فى الدورة التى انعقدت فى شتاء هذا العام ، وما باكورة الثمرات التى أهداها إلى الأمة العربية ، وفى هذا التساؤل أمارات العناية بالمجمع ، والرغبة فى الانتفاع بثمرات أعماله ، غير أن بعض الناس لم يقف بهم الأمر عند التساؤل والرغبة فى الاستطلاع ، والتشوق إلى النتائج ، بل جاوزوا ذلك إلى الاتهام والتجنى على المجمع ، ولم ينتظروا حتى تطل عليهم الحقيقة ، فتخاطبهم بلسانها الرسمى فى نشرات المجمع أو مجلته ، فيكون حكمهم بعد ذلك للمجمع أو عليه .

والحق أن الذين يطالبون المجمع أن يظهر نتائج سريعة بعد خمس وثلاثين جلسة متعجلون ، راغبون فى جنى الثمرة قبل إدراكها . فهؤلاء الأعضاء العشرون الذين جمعتهم تلك الدار من مختلف البلدان والبيئات كان لا بد لهم أن ينفقوا الدورة الأولى فى وضع الأسس التى يقوم عليها

المجمع، فبدءوا بوضع اللائحة، وهى منها جهم، الذى ينظم العلاقة بينهم، ثم ثنوا بتأليف اللجان المختلفة. وقسموا الأعمال على تلك اللجان، ثم نظروا فى بعض الأصول العلمية العربية لتذليل بعض العقبات التى تعترض اللجان فى طريق عملها.

وقد قرر المجمع فى هذه الدورة أن تقوم كل لجنة بتنقيح المصطلحات العلمية الشائعة فى الكتب المدرسية الابتدائية والثانوية، التى ألفت بمصر وغيرها من البلاد العربية منذ عصر محمد على باشا إلى اليوم. فاذا انتهت من ذلك نظرت فى كتب التعليم العالى؛ فنقحت المصطلحات الموضوعة أو المترجمة. ثم شرعت تضع المصطلحات الجديدة.

وقد يظن أن جمع المصطلحات من الكتب الدراسية الابتدائية والثانوية هين ميسور، والحقيقة أنه عمل شاق عسر. فلا بد من هذه الكتب أولا، ولا بد من قراء يقرءونها، ولا بد أن يكون أولئك القراء على علم بموضوع الكتب التى يقرءونها لاستخراج المصطلحات منها، وأن يضعوها فى قوائم تقدم إلى لجان المجمع لتنظر كل لجنة فيما بين يديها من هذه المصطلحات وتحتاج كل لجنة إلى مساعدين من العلماء الذين يساعدونها على الحكم بأن هذه المصطلحات لها دلالتها الخاصة، وعلى أعضاء المجمع بعد ذلك التطبيق اللغوى، فكم وقت ينفق فى كل ذلك؟

والذى نرمى إليه من كل ماتقدم أن المجمع فى الدورة الأولى وضع الأسس التى يسير عليها، وأن اللجان التى ألفت تعمل الآن فى جمع المصطلحات العلمية لتنقيحها فاذا انتهت أى لجنة من عمل قدمته الى المجمع فى الدورة المقبلة للنظر فى إقراره، وبعدئذ يصير رسمياً، فينشر ويذاع.

٥ — معاونة المجمع

كان جديراً بالذين يتهمون المجمع بالعجز عن خدمه اللغة العربية

— وفيه من العلماء المصريين وغير المصريين من لا يجهل قدره، ولا تخفى مكانته — أن يتساءلوا عن الطريق التى يساعدون بها المجمع لتحقيق أغراضه، فان هذه المساعدة ضريبة أدبية يجب أن يؤديها المشتغلون بالعلوم والفنون، الراغبون فى إنهاض لغتهم العربية من عثرتها، لتجارى لغات الأمم الحية فى ميادين الفخار والشرف.

إن مهمة المجمع اللغوى كما قدمت شاقة عسرة، وكل الصعوبة فى جمع المواد الأولى التى توضع بين أيدى اللجان، لتصدر فيها أحكاماً. خذ لجنة كلجنة الرياضيات مثلا، فحاجتها ماسة إلى أيد كثيرة تعاونها على جمع مصطلحات الحساب والهندسة والجبر والفلك من الكتب الدراسية، فكم كتاباً مدرسياً ألف فى تلك العلوم فى مصر وفى غيرها من البلدان العربية، وأين تلك الكتب التى ليست بأيدينا، وكم معاونا تحتاج إليه اللجنة لاستخراج تلك المصطلحات من الكتب؟ وقس على ذلك بقية اللجان، فكلها شديد الحاجة إلى أعوان مثقفين من طراز المدرسين بالمدارس الثانوية مثلا فهل يلبى المدرسون حاجة مجمعهم ولغتهم إلى هذه المعاونة فيقدموا إليه قوائم تحوى المصطلحات العلمية ويخطوا بأيديهم صفحة من صفحات الفخار تبقى لهم مابقيت العربيه فى الأرض.

وهناك ضرب آخر من المعاونة ينبغى أن يحرص عليه نقلة العلوم العالية من اللغات الأجنبية إلى العربية، فعلى هؤلاء أن يضعوا قوائم تحوى المصطلحات الجديدة باللغة التى ينقلون منها مع مايقترحون لها من ترجمة عربية وأن يعرضوا ذلك على المجمع كلما اجتمع لهم منه قدر صالح ليصدر قرارا بما يجوز استعماله من تلك المصطلحات ومالا يجوز وليساعدهم على اختيار آخر، وفى التعاون بين المجمع والعلماء ضروب من الفوائد لا يجهل قدرها

ومن طرائق معاونة المجمع ما يضعه العلماء من البحوث اللغوية فى

تحقيق الألفاظ وتاريخ استعمالها وتدرج دلالاتها . وهذا الضرب من المعاونة يشمل أمورا . منها :

ا — نقد المعاجم العربية ، وشرح الألفاظ الغامضة شرحا كاملا كأسماء النبات والحيوان ، مما يقال فيه : نبات أو حيوان معروف ، أو نحو ذلك ، من الصفات التى لاتجلو عمى ولا تذهب حيرة وقد يكون من العناية بذلك تصوير الشىء المقصود ، وهو فى هذا العصر سهل ميسور .

ب — تصحيح الألفاظ والأساليب التى يغلط فيها كثير من الناس وبيان وجه الخطأ فيها .

جـ — حصر ألفاظ اللغة العامية وردها إلى أصولها . واستخراج قواعد صرفها ونحوها وبلاغتها ، وجمع أمثالها وحكمها ودرسها درساً علمياً لمعرفة دلالتها على أحوال المتكلمين بها .

ومن معاونة المجمع درس القواعد الصرفية والنحوية والهجائية التى يؤدى الأخذ بها إلى تيسير اللغة وتسهيلها على القارئين والكاتبين ، كقواعد الجموع ، وقواعد رسم الحروف . ونشر البحوث فى ذلك بمجلة المجمع أو بغيرها .

وبعد ، فإن معاونة المجمع لاتقف عند هذه الأمور المذكورة ، ولكننا لانريد أكثر من ضرب المثل ، وإن المجمع ليتقبل بالشكر من خدام العربية المخلصين أن يمدوا إليه أيديهم بالمعاونة العلمية الصادقة

وليس من شك فى أن « جماعةدار العلوم » وصحيفتها أحق من يقوم بمعاونة المجمع . وقد نص قانون « الجماعة » على ذلك ، كما جعلته « الصحيفة » جزءا من منهجها . وبذلك نرى أصدق صفحة من وفاء « دار العلوم » للعربية : فأبناؤها فى داخل « المجمع » وفى خارجه أعوان المجمع ورعاة الفصحى .

الشعر الوصفى

وصف الطبيعة

فوق نبع الصفا [١]

لحضرة الأستاذ عبد الباقى ابراهيم المدرس بمدرسة عبد العزيز للمعلمين

يا نمير الماء يجرى صَببَا قد جلت منه ذكاء الذهبا
فوق شبه الدر أو أبهى جرى هامسا همسا يثير الطربا
تحت جنات فسيحات زها بحلى رصَّعْن أعطاف الربا
أنت سلوان إذا الهم طغى وشفاء حين نشكو الوصبا
ملئت نفسى بينبوع الصفا بهجة ردت شبابا ذهبا
كشفت لى صورة النفس التى أسبل السُّقْم عليها حجبا

* * *

دافقا من بين أصلاب الصفا ذلّل الصخرَ ووطّأ مركبا
فتراه مرة منبعثا من خلال الصخر أو منسربا
وتراه تارة مندفقا فوق « شلال » عليه وثبا

* * *

هادىء النغمة لا يزعجه صائح القاع [٢] تشكى صخبا

(١) نبع الصفا ، نهر يتدفق فوق جبل شامخ من جبال لبنان الجنوبية .
(٢) القاع نهير بجوار نبع الصفا .

عطف الدوح عليه وحنا	مد ذيلا ثم أرخى هدبا

☆☆☆

يا جلاء الهم ما ذا تشتكى	مسبل الدمع له مضطربا
ما الذى تهمس فى أذن الحصى	فتهيج القلب منى للصبا

عند شاغور حمانا (١)

للأستاذ عبد الباقى ابراهيم

يا لها بهجة بعينى وقلبى	يوم مُلّيتُ رؤيةَ الشاغور
دافقاً من ذرا أشم منيع	لاح للعين فى جلال ونور
نحت الصخر فى أناة ولين	رب عزم يشتد تحت فتور

☆☆☆

سرمدى تحار من أين يجرى	وإلى أين فى صميم الدهور
مستريح إلى الغناء فما تبهرُ	أنفاسه لطول الخرير

☆☆☆

أيها الصادح الذى يرسل اللحن	طليقا يفيض فيض الأثير
صاقلا وحشة النفوس بأنس	ساكب البرد والندى فى الصدور
وقفت حوله الطبيعة تصغى	كفتاة أصغت للحن طرير
ما لقلبى لديك يشعر بالحزن	وعينى بكت بدمع غزير

(١) شاغور حمانا ، نهر يتدفق من علو شاهق فى مصيف من مصايف لبنان يدعى حمانا .

إن بين السرور والحزن قربى تنبت الحزن فى مجال السرور
أم لعلى بك اذَّكرت زمانا كنت فيه كالبلبل المحبور

✡✡✡

هاتفا للجمال حيث أراه ناشراً سره بلحن مثير
فى وقار الدجى تَلَفَّع بالسو د وفى خفة الصباح المنير
فى ابتسام الأزهار قبلها الفجر وفى رونق الشباب الغرير

✡✡

كم ضحكنا للنيل يهمس للرمـــل كهمس الشاغور بين الصخور

مودعا سره بألطف نجوى مثل همس النسيم أو كالصرير
وضحكنا له يسير وديعاً فى ازدهاء وفى اختيال وقور
فى انصقال يحبو العيون ضياء وانفساح يزيح ضيق الصدور

ولأمواجه لهن رنين واصطفاق والليل مرخى الشعور
نغمات تطير من هَجْعة الليل وتضرى من طرفه المخمور
نغمات تشيع فىَّ ابتهاجا وسمواً ورقة فى الشعور

شعراء دار العلوم

بقلم

حضرة الأستاذ عبد الرحيم بن محمود
المدرس بالمدرسة التوفيقية الثانوية

دار العلوم خير دار نَجَلَتْ أدباء، كتَّابا وشعراء، وقد نيفت اليوم على الستين عاما، وما زالت فى فم الدنيا ابتساما. وما كانت الفنون اللسانية التى حذقوها وتوفروا على تعليمها بعد تعلمها إلا وسيلة للكلام الصحيح الفصيح نثراً وشعراً — وقد نبغ من دار العلوم كتَّاب هم لهاميم البلاغة وعرانين الفصاحة وتجلت آثارهم فى الصحف ولهم فيها الصدر كالأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش والأستاذ التابعى كما تجلت رسائلهم فى المختارات الأدبية بأقلام محمد الخضرى بك ومحمود أبى النصر بك وحفنى ناصف بك وحسن توفيق العدل افندى والشيخ طنطاوى جوهرى والشيخ عبد الوهاب النجار مما اقتُبِس من الصحف ومؤلفاتهم المنوّعة — ولست أريد الآن الكتابة فى أولئك الكتاب لأنى لم أعنونْهُمْ ولكنى أقصر كتابتى على شعراء دار العلوم واذكر آثارهم التليدة والطريفة التى جادت بها قرائحهم ولقيتْ من الآذان استماعا، ومن القلوب انتجاعا ومن النفوس استمتاعاً.

وقد اعتاد الأدباء المؤرخون أن يعرّفوا المتأدبين بالأديب المترجم له بوصفه وصفاته، وبإذاعة ما يتصل بحياته، من مولده إلى مماته، لأن للنشأة التى نشأ فيها الأديب ولوطنه وعصره، أثراً فى نثره وشعره. ولكنى لا أنسج على هذا المنوال، لأن معرفتهم بأدباء دار العلوم أكثر مما يكتب ويقال — والمعرّف لا يعرّف ومن ذا الذى يجهل تاريخ حياة شعرائنا مثل حفنى ناصف بك والشيخ محمد عبد المطلب وله ديوان مطبوع متداول

وكذلك الأستاذ على الجارم والأستاذ عبد المغنى المنشاوى والشيخ عبد الله عفيفى والأستاذ سليم المسلمى وشاعر الاهرام الأستاذ محمد عبد الغنى حسن والأستاذ خلف الله والأستاذ سيد قطب من كتاب الاهرام والمغرد على فننها إلى غير أولئك ممن لم أذكرهم اليوم مجملا وسأذكرهم غداً مفصلا —

واكتفى بتعرف شاعرية كلّ شاعر من شعره الذى أحلله تحليلا فنياً من حيث المبانى والمعانى أولا والشعور ثانياً والخيال ثالثاً والمنطق رابعاً — وهذه دعائم الشعر لا النظم العروضى أى الكلام الموزون المقفى — وإنى اسبر بمسبار عصرى الذى هو عصر كل منهم مبلغ الاستفادة بما رأى واختبر من المستحدثات وما انتفع به فى شعره من المخترعات وما أثر فيه وفينا من الأخلاق والعادات ، والحقائق والترهات ، -- وأؤخر الحكم له أو عليه بأدبه حتى تتم المقالات ، لأن الحكم نتيجة المقدمات ، فيلقى من الأفئدة إقبالا ، ومن النفوس إجلالا ؛ بعد أن يدخل الآذان بلا استئذان .

وما النثر الفنى الا شعر منثور إذ أنه قام على أركان الشعر التى سلفت وإن كنت لا أعرض له فى مقالاتى التى هى بذلك العنوان لتجرده من أوزان الشعر العربى الجاهلى والاسلامى .

فإن أنكر علىّ أحد حكمى ، واتهم فهمى فليردّ على كلمى — وإن أصبت فؤاد الحقيقة (وهى بنت البحث) فقد أصبت هدفى فى هذه الطريقة الطريفة — وهذا جناى وخياره فيه ، وكل جان يده إلى فيه .

وكأنما أتمثل بملك البيان أحمد شوقى بك حينما قال :

إنّى وإن صفرت كاسى أخو كرمٍ أُسقَى وأسقى أولى الألباب من كاسى

وإنّى أريد المؤدّبين على اتباع هذه الشرعة ، وإن كانت صعبة ، فينبغى ألاّ يطنبوا فى التراجم ويوجزوا فى النماذج ويجتزئوا بتفسير

مفرداتها اللغوية وتحليلها نحويا لا بيانيا فقد ضاع الوقت وما أثمنه فى الإعراب ، فى غير إعراب وإطراب ، والإبدال والإعلال فى اطراد المقال فاعتلت بنات الشفاه وبنات النهى ولما يمنّ الله عليها بالإبلال — واحر قلباه — فإن ضاق وقت التدريس بالمدارس عن تحقيق هذه الغاية لتشعّب المناهج المخفنة المثقلة فلن تضيق عنها المدارس فى غير المدارس والشعب العربية ، فى الأزهر ودار العلوم والجامعة المصرية ، ولن تضيق بها المجلاّت الأدبية ، والصحف اليومية .

وما علىّ إذا ماقلتُ معتقدى   دع الجهول يظنّ الحق بهتانا

وأرانى مضطرا إلى توضيح منهجى التحليلىّ الذى أومأت إليه فى صدر مقالى حتى لا أذر مجالا لمستدرك ولا ريبة لمرتاب فى كل ما أجملت وأوجزت فأنير سبيلى بنور الهداية فى البداية فأقول :

(١) المعانى والمبانى — يقصد الشاعر من شعره ، مايقصده الناثر من نثره أى الإبانة عما فى نفسه من المعانى أيّا كان المقام كالغزل والمديح والهجاء والرثاء والوصف والفخر والعتاب والاعتذار والاستعطاف والسياسة وشكوى الحال والحكم والوعظ وضرب الأمثال ، إلى غيرها من أبواب الأدب التى عرفت عن العرب .

ومن هذه المعانى ماهو فطرى فيشترك فيه البدوى والحضرى من العرب والعجم كالأوليات والأحوال المشتركة فى الحياة والمشاهد التى يشهدها الناس فى البر والبحر والسماء والهواء والمشاعر الباطنة كما توحى بها الخواطر بلا مبالغة ولا كدّ خاطر - واتفاق الشعراء فى هذه المعانى الفطرية لا يعد سرقة ولا توارد خواطر - ومنها ماهو غريب نادر انتزعه الخيال من المرائى الجميلة والميول الجليلة وألف بينها تأليفا يأخذ بالألباب ، فى كل باب ، وذلك يسمى المعانى المخترعة وهو فى الفِطَر السليمة أكثر

انتزاعا، وفى الأمم المتحضرة أجلّ إبداعا وبه تتفاضل الشعراء. على أن يكون المعنى جليا على تساميه ، وللحقيقة فيه نصيب موفور وإن لبست ثوب الخيال. فان كان فيه مبالغة فعلى الأديب ألاّ يخرج بها عن العقل ومألوف الطبع. وعلى أن ترتب المعانى ترتيبا منطقيا وإن تداعت فينبغى ألاّ تجر إلى استطراد يخرجها من المقام إلى غيره فى غير مايقتضيه وللاستطراد البديعى موطن يحسن فيه لمناسبة تستهويه . فتأخذ المعانى بعضها بأيدى بعض،على مدّ القرض، وتتساوق كما تتناسق تناسق الأزهار فى الطاقة، والغزلان فى الرشاقة.

أما المبانى فتنتقى ألفاظها فتكون رشيقة رقيقة، سهلة جزلة. وتتوثق الروابط بين عباراتها ويكون سداها البيان ، ولحمتها الافتنان، وتوشّى بالبديع من البديع فى غير تعمد وتكلف وإسراف . وحمادى المقال أن يكون اللفظ جزلا والأسلوب عذباً فينصب سرىّ المعنى فى سرىّ المبنى، من أقرب الطرق إليه وأطرفها لديه.

وقد كنت أعدى أعداء الصناعة اللفظية فأصبحت من نصرائها فى الشعر العربى والنثر الفنىّ إذا بلغت الغاية فى الجمال والإتقان كنثر بديع الزمان وبين يدىّ أسواق الذهب لزعيم الأدب أحمد شوقى بك يروعنى فيه وفى شعره المبنى والمعنى كأنهما أُخَذُ السحر ، فى كلّ سطر، كما يروعنى جمال التمثال ، الذى يحقق معانى الجمال ، وستجد أيها المتأدب شعراءنا مصوّرين بيانيين يتخذون الصنعة. وسيلة للروعة، ولا غرو فإنهم شبوا وشابوا فى وادى النيل تحت ظلال النخيل وصافحوا نسيمه العليل البليل بين آثار المدنية التليدة، فى أحضان المدنية الجديدة. فتعلموا فى دار العلوم بعد الأزهر وعاشروا أمشاجاً من الناس مختلفى الأجناس. فكان منهم المعلمون والقضاة والمؤلفون والمترجمون فى المنقول والمعقول. والمعلوم

والمجهول ، وكانوا صادقى الحدس لطيفى الحس فكهين فى سرعة خاطر حاضرى الجواب بين الصحاب ولا عجب إذا كان إنشاؤهم عذباً ، وشعرهم عجباً فبلابل الرياض مطبوعة على حسن الأنغام - ولم يحرموا أنفسهم جمال الدنيا وجلالها وقد ظهر أثر الجمال والجلال فى شعرهم على ما ترى بعد - إن من البيان لسحرا -

(٢) الشعر شعور لأنه عنوان الحياة النفسية بما اشتملت عليه من مشاعر يمليها الفؤاد على القلم فتسيل شعرا على القرطاس وتتداولها ألسنة الناس — وأرق الشعراء شعرا أرقهم شعوراً .

(٣) الشعر حقيقة وخيال ، فشعر الحقيقة شعر الحكمة والعظة والأمثال ، - وإن من الشعر لحكمة - وشعر الخيال فيما عداها فتتوثب النفوس إليه كما تتوثب للصور الحسية الرائعة بيد المصور الماهر . فى العابر والغابر ، والخيال أداة التصوير الشعرى كما أن الألوان والذوق والرسم أدوات التصوير الحسّى . فالشعر بخياله صورة تتكلم أو كلام يصوِّر . وقد يفوق الشاعرُ المصوِّر بالخيال البارع فقد يمثل لنا بكلمة مشهداً لا يستطيع تمثيله مصور ألف بين الألوان وأمعن فى الأجادة كل الأمعان ولو كان روفائيل أمهر المصورين . وقد تلبس الحقيقة ثوب الخيال كما يلبس الخيال ثوب الحقيقة .

(٤) الشعر منطق لأنه إذا لم يكن موزوناً بميزان العقول كان كلاماً هُراءً متنافراً . والشعور والخيال قد يشردان إذا لم يكن العقل رقيباً عليها ليخفف من غلوائهما ويكبح من جماحهما . وما أصدق قدماء اليونان إذ صوَّروا الشاعر فى مركب يقوده جوادان جامحان هما الخيال والشعور وقد جعلوا أعنتهما فى يدالعقل أى المنطق ليكبح من جماحهما وإلا هويا بالشاعر إلى الهاوية . ويا لتعريف الشعر بأنه الفلسفة تحمل زهراً . وإن

شذت فقل الشعر زهر فى أفنان الفلسفة (وهى الحقيقة الواضحة المؤيدة بالحجة الدامغة) فالمنطق يعصم العقل من الخطل كما أن علوم اللسان ولا سيما النحو تعصم اللسان واليراعة من الخطأ فى أساليب البيان .

وآية المنطق أنك تنثر القصيدة نثراً مرسلا بعد قراءتك لها فلا تزيد على أصلها ولا تنقص عنه فإذا ساير منثور القصيدة العقل كان قائلها شاعراً منطقياً وإلا فهو يهرف بما لا يعرف وكثير من أدبائنا ونقدة الأدب قديمه وحديثه قد عنوا بالمبانى نقدا والمعانى يعدونها عداً ولم يؤلفوا بين أجزائها طريقاً حتى يظهر لهم أنه معبد أو مقعد نخفى عليهم ركن من أركان الأدب ودعامة من دعائم النقد وهو العقل الذى إن لم يكن أقواها فليس دونها قوة وخطل العقل فى التفكير أهون من خطأ اللسان فى التعبير :

وقد رأيت أن أبدأ شعراء دار العلوم بشاعرها الأول حفنى ناصف بك رحمه الله سنة ١٢٧٢ – ١٣٣٧ هـ = ١٨٥٧ – ١٩١٩ م على منهجى السابق وقد ترجم حياته الوسيط لأستاذىَّ الفاضلين الشيخ احمد الأسكندرى والشيخ مصطفى عنانى ويشرفنى أن أكون من أعلم الناس بأدبيه أدب نفسه وأدب درسه ، لأنى من أبنائه المتأدبين بأدبه فى الجامعة المصرية سنة ١٩٠٩ ، ١٩١٠ ميلادية .

وقد رأيته قد شعر فى أغراض شتى من غزل ورثاء ووصف وشكوى الحال إلى غيرها وأجتزىء فى هذا المقال بعرض نموذجين من غزله العفيف فى لفظه الشريف ثم أكشف عن سحر مبانيه ودقة معانيه ورقة شعوره وحسن تخيله ونضج منطقه وهو استاذ اللغة والمنطق والأدب وفيها قد ألف وما استهدف – قال رحمه الله وهو مصطاف بأربة للاستشفاء –

(ا) النموذج الأول على البحيرة « جنيف فى سويسرة »

سل المهابين إفيانٍ ولوزانِ ماذا فعلن بقلب المغرم العانى (١)
إذ كنَّ فى الفُـُلْكِ كالأقمار فى فَلَكٍ يشرفن فيه على ألعاب نيران
فكم من الأرض سهم للسماء وكمْ سهم تسدَّد لى من تحت أجفان
يعلو البحيرة من نيرانها شرر كزفرتى حين يجرى مدمعى القانى
يذهبن بالفلْك أيماناً وميسرة فيها ويطربن من توقيع ألحان
سِرْبٌ يغنّين بالأفواه مُطْرِبَةً وثلةٌ برَبَابَاتٍ وعيدان
والوُرْق فى الشاطئ الأدنى تجاوبها تبدى أفانين شدوٍ بين أفنان

(ب) النموذج الثانى « عيون وعيون »

أرجعوا لى يا غيد مَارمبَادِ مهجتى قبل عودتى لبلادى (٢)
إننى قد شددت رحلى وأهلى فى انتظارى فأطلقوا لى فؤادى
ليتنى لم أزر حماكم فانى فى هواكم أضعت كل رشادى
وبرانى الضنا فصارت ثيابى فوق جسمى كمِضْرَبٍ ذى عماد
وأتانى السقام من حيث أبغى صحة وانهزمت قبل الجلاد

***

حدَّثوا أن فى حماكم عيوناً تذر الناس ضامرى الأجساد
صدقوا إنها عيون ولكن كحلت منذ خلقها بسواد

***

جنَّبونى ذكر العيون فقلبى فى ارتعاش من فعلها وارتعاد
فهى كالكهرباء تومى بلحظ فتدق الأجراس فى الأكباد

(١) إفيان ولوزان مدينتان على بحيرة جنيف بسويسره ـ المها البقر الوحشى مفرده مهاة ـ العانى الأسير المعذب (٢) مارمباد مدينة فى النمسا شهيرة بمياهها المعدنية الحارة التى يستشفى بها البادن فيخف جسمه فى غير إجحاف.

عُلُومُ التَّرْبِيَةِ

بين القديم والحديث

فى التربية والتعليم

بقلم حضرة الأستاذ عبد الحميد حسن
المفتش بوزارة المعارف

فى عالم التربية والتعليم كلمات جرت بها الأقلام ورددتها الألسنة، فملأت جو كثير من الممالك وانتشرت حتى وصل صداها الى أسماعنا. ومن تلك الكلمات « التربية الحديثة » و « الطرق الحديثة » و « الاتجاهات الحديثة » وغيرها. فما هذا النظام الحديث فى التربية؟ وما أصوله؟ وما غايته؟ وما وسائله؟ وما أثره؟ وما نصيب مدارسنا منه؟ لعل هذه الأسئلة أو شبهها مما يجول بخاطر كثير من المتصلين بالتعليم. وقد يعجب بعضهم أن يكون هناك مستحدث فى التربية وطرق التعليم بعد طريقة هربارت ذات المراتب المعروفة التى تنفذ من عهد بعيد تنفيذا دقيقا فى جميع مواد الدراسة؛ وبعد كتابة الدروس فى مذكرات تحيط باطرافها وتضم من المادة العلمية الشارد والوارد، ولا تغادر صغيرة ولا كبيرة مما سينطق به المعلم فى الدرس الا أحصتها، وبعد إجهاد المعلم نفسه فى الالقاء والشرح مما يملأ به أسماع التلاميذ وهم جلوس لا يطرقون، وبعد هذه الطريقة الاستنباطية أوشبهها التى تذكر الامثلة أولا ثم تدون النتائج والقواعد بعد مناقشة طويلة أو قصيرة، وبعد استخدام الصور ذات الألوان والرسوم ووسائل الايضاح التى تمثل مناقير الطيور

ومخالبها ، وأشكال الحيوان وأنواع النبات ، التى يفيض المعلم فى شرحها ووصف وقائعها ؛ وبعد هـذه المناهج التى لم تترك من العلوم فرعا إلا حاولت أن تنافس واضعيه وكبار المؤلفين فيه . فهل بعد هذا مستحدث ؟ وهل وراءه من جديد ؟

قد يجول بالخاطر شىء من ذلك أو نحوه . وكل هذا يدل على حقيقة ماثلة وهى أن هناك اتجاهين متعارضين هما الاتجاه الحديث والاتجاه الحالى الذى تسير عليه نظم التعليم عندنا

فلنقف من هذين الاتجاهين موقف الشرح والوصف ثم نحتكم إلى الأصول التى سادت والحقائق التى ذاعت فى التربية لنصل إلى حكم صحيح

(١) أما التعليم فى نظامه الحالى واتجاهه السائد الآن فيتضح حينما نستعرض ماتسير عليه المدارس من وجوه أربعة وهى : المعلم ، والمتعلم ، والمناهج ، والغاية المنشودة

(١) فأما المعلم فقد رسم له الطريق وحددت له الغاية وهى أن يعد دروسه واحداً بعد الآخر على حسب المنهج وأجزائه ثم يتقدم بأساليبه المختلفة فيستعرض بضاعته على الأسماع ، أو على الأنظار أحياناً ، مستعملا من ذلاقة اللسان وقوة البيان ماوهب له الله . ولا يزال كذلك حتى يثبت الحقائق فى العقول ثم يطالب التلاميذ بالاستذكار والاستظهار استعداداً للاختبار المتتابع فى مظاهر شتى شفهية وكتابية ، وارتقاباً لليوم المشهود وهو يوم الامتحان العام (الذى يكرم فيه المرء أو يهان) كما يقولون

والمعلم فى كل هذا هو الذى يقوم بالعبء التعليمى أو التلقينى وهو البوق الذى يذيع الحقائق وهو المنبع الذى يفيض المعارف وهو الفعال لما يريد فى كل المواقف وهو الذى يقود الأفكار ويصرفها كما يشاء

على أنه يجمل بنا ألا ننسى أنه يتحمل فى كل هـذا من الصعاب مايضنيه ، ومن المتاعب ماينهك جسمه ويضعف نظره ويفت فى قواه إن كان من المعلمين المخلصين .

ولعل ما يناله من عناء لايقل عما يصيب التلاميذ وعما نالته السبورة فى حجرة الدراسة من محو وإثبات ، وعما نالته الأوراق والمحابر والأقلام من عمل فى التدوين والاصلاح . كل هذا فى سبيل الواجب التعليمى الذى يبذل المدرس جهده فى إتمامه ويتابعه التلميذ فى التهامه ، هـذا الواجب الذى يرمى إلى حشد الحقائق ونقشها على صفحات العقول لتحقيق المثل المعروف « التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر » حتى يصبح التلميذ جعبة تفيض بدرر الألفاظ وساحة تموج بذخائر الحقائق .

(٢) وأما التلميذ فحسبه أن يجلس فى حجرة الدراسة ساكنا خاضعاً للنظام يستمع لمـا يفوه به العلم ثم يتأبط من الكتب والكراسات فى آخر اليوم المدرسى ما ينوء بحمله ليستذكر ما سمع ويسطر الاجابة عن الواجبات المختلفة التى تستنفد ما بقى له من ساعات اليقظة وتطغى على ساعات راحته ورياضته . وهو فى كل هـذا أشبه بجهاز يتلقى ويتقبل مرغما ، أو أسطوانة مرنة تطبع عليها الدروس شتاء حتى إذا تغير الجو وجاء الصيف تغيرت المعالم فطمست الألفاظ وذهبت المعلومات فى طيات هذه العجينة التى صنعت منها الأسطوانة . ولا يعلم أحد ماذا تركت هذه الدروس من أثر فى تكوين التلميذ وثقافته وإعداده للحياة . ولكن الذى نعلمه والذى يحس به التلميذ نفسه هو أنه فى المدرسة بمعزل عن الحياة التى يشتاق إليها وعن العمل الذى يتحرك له قلبه وتتحرق ميوله وغرائزه شوقاً إليه .

(٣) وأما المناهج فحسبك أن تعلم انهـا كتاب مرقوم تتلى صفحاته

فى أيام معلومة من السنة الدراسية حتى إذا انتقلت من مدرسة إلى اخرى فى أطراف القطر فإنك ستسمع الشيء نفسه يتلى على التعاقب فيخيل إليك أنه رواية يطاف بها وتمثل فصولها أينما حللت وكأن مايعرض من فصولها ومناظرها فى إحدى البيئات لايجوز أن يتسرب إليه التغيير بل يجب أن يلقى بنصه فى البيئات الأخرى ، على ما هنالك من اختلاف فى المظاهر والمناظر والمطالب والاستعداد

(٤) وأما الغاية المنشودة فواحدة وهى امتحان تتسابق فيه الأقلام وتتبارى النسب المئوية ، والفوز لمن ضرب بسهم فى الأرقام العالية والدرجات العددية الرفيعة . أما القدرة الصحيحة والميول الفطرية والمواهب الكامنة والحياة نفسها والاستعداد لها والاتصال بها وتحقيق ما تنشده فلم ينل شيء من هذا حظه من العناية وليس له فى ميادين التعليم نصيب .

☆☆☆

هذه هى الحال السائدة فى التعليم . والظاهرة البارزة فيها هى انها أغفلت عاملين أساسيين هما الطفل واستعداده وميوله ونشاطه ومطالبه ثم الحياة والاستعداد الصحيح لها .

(ب) فلننظر بعد هذا إلى مطالب التربية الحديثة واتجاهها وغايتها :

نسمع الآن بكثير من الطرق الحديثة مثل طريقة « دالتون » و « المشروع » و « دكرولى » و « وينتكا » ونسمع أيضاً بالنشاط الذاتى وضرورة استخدامه وتغذيته ، و « بالمشكلة » التى ينبغى أن يدور حولها التعليم وتتجه جهود المتعلم لحلها ، وبأن النشاط يجب أن يكون موجهاً لغاية تصوب نحوها الرماية . نسمع بهذا وبكثير من مثله . ولسنا نريد الإفاضة فى شرح كل هذا فميدانه واسع ولكل طريقة أو فكرة من هذه

قواعدها الخاصة بها ودعائمها التى ترتكز عليها . ولكنها كلها أو معظمها ترمى إلى غاية واحدة وتلتقى فى ساحة واحدة وتصطبغ بصبغة واحدة وتسير فى اتجاه خاص هو الذى يميز التربية الحديثة ويطبعها بطابع تنفرد به عن القديم.

(١) وأول هذه الدعائم أن تكون المدرسة حياة ينمو فيها الطفل نمواً طبيعياً ، ولا يتحقق هذا إلا إذا كانت المدرسة صورة صحيحة للحياة وللبيئة التى تحيط بالطفل قوامها الأعمال الحيوية المختلفة التى تثير الاهتمام وتوقظ النشاط وتدفع الأطفال الى مواجهة الحياة وحل مشاكلها

ولا ينكر إنسان أن الحياة العملية وما فيها من مشاكل ومعضلات وما يفيد الفرد فيها من خبرة وتجارب ، وما يصادف من أسباب لها نتائجها ونتائج تتطلب معرفة أسبابها ، وما يقوم به من أعمال تتطلب بذل الجهد وإرهاف الحواس . والتفكير فى حل الصعاب ، كل أولئك له الشأن الأول فى إعداده للحياة ، فالحياة هى التى تعلم الحياة وهى التى تعد للحياة ، ولسنا فى حاجة الى دليل على هذه الحقيقة فهو على ألسنة الجميع من المتعلمين ، وهم يقررون أنهم لم يدركوا للحياة ومشاكلها ومطالبها معنى الا بعد أن أتموا الدراسة وخرجوا إلى الميدان العملى فى الحياة فازدادوا خبرة على مرور الأيام بما عملوا وما صادفوا ، وكلما ازدادوا تعمقاً فى الاتصال بالحياة ازدادوا بها علما ولها استعداداً

ولعل هذا القول يوجه نظرنا إلى الصلة بين المدرسة والحياة ، ويجعلنا نتساءل عن قيمة المدارس فى إعداد الفرد للحياة إذا كانت الهوة بينها وبين الحياة الحقيقية سحيقة الى هذا الحد ، فالمدرسة اذا بعدت عن الحياة الصحيحة الخارجية كان محالا ان تعد للحياة وكان الوقت الذى يقضيه فيها المتعلم قليل الجدوى ، اللهم إلا إذا غيرنا الحقائق الثابتة وهى أن الغرض

من المدارس ومن التربية هو الإعداد للحياة ، ورسمنا للمدارس غاية أخرى لا يقول بها المربون الآن

ولننظر إلى مدارسنا ، أهى صورة من الحياة التى يجب أن يحياها التلاميذ ؟ لا إخال الجواب إلا سلبياً ، فهذه القيود الدراسية والمواد التى لا تدور حول محور من حياة الطفل ولا تربطها أواصر الصلة ، وتلك الجدران التى تحول بين التلميذ والحياة ، وهذه المقاعد التى تشل الأجسام وتقيد العقول ، وهذه الدروس النظريه الإلقائية المتتابعة ، وتلك الطرق السردية أو الحوارية التى يدير المعلم رحاها ، كل هذا إنما هو عمل صناعى وليس هو الصورة الصادقة للحياة

وإن تحقيق القاعدة التى نحن بصددها وهى جعل المدرسة حياة أو صورة منها يستدعى أن تكون المناهج مقتبسة من الحياة جارية على نهجها وأن تكون المواد الدراسية وحدة متماسكة دائرة حول الحياة ومظاهرها ومشاكلها مما يألف الطفل وما يعمل لو وسع له المجال ، وأن تكون طرق البحث والدرس والعمل هى الطرق التى يسلكها الناس فى حياتهم ويشتاق الأطفال لتنفيذها ، فهل حققت مدارسنا شيئاً من هذا ؟ نترك الجواب لمن يود أن يجيب

(٢) والدعامة الثانية : هى الالتجاء إلى النشاط الذاتى للأطفال وإلى دوافعهم الباطنية فهى القوة الفعالة فى النمو الصحيح ، فينبغى فتح ميادين العمل أمامها حتى تنال الغذاء الصالح وتنمو نموا ذاتيا طبيعيا

وهذا النشاط شبيه بما فى البذور النباتية من حياة كامنة واستعداد للنمو والإثمار ، ولا يتطلب هذا الاستعداد إلا أن نغرس البذور فى التربة الملائمة ثم نمدها بالماء فى فترات خاصة لتستعين به على امتصاص الغذاء حتى تتفتح وتترعرع وتثمر ، وكذلك نشاط الطفل فى حاجة إلى أن نمهد

له البيئة الصالحة وأن ندعه يحصل ما ينفعه من غذاء فيما يحيط به ويعمل بنفسه على تنمية قواه وإنضاج مواهبه وشحذ عقله ، والجو الذي ينمو فيه هذا النشاط ليس هو الحجرات المقفلة الخالية من مظاهر الحياة ، ولا هو هذه الدائرة المدرسية الضيقة الضئيلة فيما توخى من أغذية للنشاط ، ولا هو هذه الحياة الجلوسية التي ترهف فيها الأسماع وترهق العقول والأجسام من الإصغاء الممل الذي لا يوافق حياة الأطفال ولا يستثير نشاطهم ولا ينال منهم إلا إعراضا ونفوراً ولكنه هو الحياة الصحيحة بما فيها من عمل وتعاون وحركة ونشاط وتبادل أفكار إلى غير ذلك مما هو من مظاهر الحياة العملية ، ومما له أعظم الأثر في تكوين الفرد تكوينا تاماً نافعاً .

(٣) والدعامة الثالثة : أن يكون عمل التلميذ وبحثه وجهوده موجهة نحو غاية ، وأن يشعر الطفل بأن هناك غرضاً يرمى إليه ومرمى تسوقه نفسه إلى الوصول إليه ومشكلة يجب أن يتجه الجهد نحو حلها ، وهذا الغرض يجب أن يكون وليد تفكيره وحاجاته ، ولا ينبغي أن يدفعه المعلم دفعا للسير وراء غايات لم تتجه إليها نفسه وليست وليدة الحاجة التي تجول بخاطره ، فإنما يجول بخاطر المعلم من الغايات ليس من الضروري أن يصلح حافزا لنفس الطفل أو مثيراً لنشاطه ، وغايات المعلم كثيراً ما تكون مقتبسة من الكتب وخاضعة للمناهج وأجزائها أو لنظم مدرسية لا تتمشى مع عقل الطفل ولا توافق نفسه .

أما حمل الطفل على أن يسير إلى غير غاية مفهومة لديه أو لغاية لا يدركها فانه لا ينتهي بفائدة فهو أشبه بسير الهائم على وجهه في بيداء ، أو المسوق قهرا عنه لا يشعر بدافع نحو العمل ولا يلبث أن تنصرف نفسه عنه ، وإذا سار فيه فإنما يسير مرغما طوعاً للأوامر المدرسية ، ولا يكون لعمله أثر نافع

وإن ما نقصده هنا إنما هو الغرض الذى يرتسم أمام التلميذ أو يرسمه هو لنفسه ولا نريد ذلك الغرض الذى يرمى إليه المعلم ويسطره بعض الطلاب فى مذكراتهم ويقسمونه قسمين خاص وعام ثم يطنبون ويسهبون ويبالغون فى تنميقه فى غير فائدة . فالغرض هنا هو الحافز وهو الموجه وهو الباعث على الابتكار والتفكير فى حل المشاكل . وهذا هو الذى يشعر به كل عامل فى الحياة

(٤) والدعامة الرابعة هى الحرية التى يجب أن يشعر بها الطفل فى عمله وتفكيره ونشاطه، فإنا إذا صدمنا حرية الأطفال فقد شللنا نموهم وأخمدنا نفوسهم وكبتنا دوافعهم الباطنية ، فالحرية هى الميدان الصالح للنمو الصحيح

* * *

هذه هى طائفة من أهم الدعائم التى ترتكز عليها التربية الحديثة ، وإنك لترى فيها ظاهرة بارزة وهى أنها مثال للحياة الصحيحة ، فالمدرسة حياة وثيقة الاتصال بالحياة الحقيقية ، حياة تحفزها الغايات التى تتجه إليها النفس راغبة راضية مطمئنة ، حياة أقل ما فيها أنها تعد للحياة أو بعبارة أدق هى لون من ألوان الحياة ومرحلة من مراحلها يقضيها الأطفال فيما لا نريد أن نسميه مدرسة إلا ارتضاء لما جرى عليه العرف بل نسميه ميداناً من ميادين الحياة .

* * *

لسنا بعد كل هذا فى حاجة إلى أن نفاضل بين التربية الحديثة وبين النظام التعليمى السائد فى مدارسنا فالرجحان واضح .

على أن القارئ إذا أراد أن يحتكم إلى شئ يزداد به اطمئناناً فإنا نحتكم معه إلى حكم لا يجادلنا فى أنه الحكم الذى ترضى حكومته . وذلك هو معنى التربية والغرض منها ، ولا يجادلنا القارئ أيضاً فى أن هذا يتركز

فى كلمات ثلاث وهى «إعداد الطفل للحياة» فمعنى التربية هو إعداد الطفل للحياة ، والغرض منها أيضا هو إعداد الطفل للحياة ، أو بعبارة أمثل وأبعد عن التحكم فى الطفل ، هو تمكين الطفل من الاستعداد للحياة .

فالطرق الحديثة ودعائمها وقواعدها كامنة فى هذه الكلمات الثلاث وهى « الطفل » ، « الحياة » « والصلة بينهما » وهى إعداد الأول للثانية . وتحقيق هذا الغرض يتطلب مراعاة الطفل والالتجاء إلى الحياة فى تنميته وتمكينه من الاستعداد لها ، وكل هذا يستلزم أن نجعل الحياة هى المدرسة أو المدرسة حياة ، وأن نلجأ إلى الطفل فنعرف ميوله ودوافعه النفسية ، والأغراض التى تجول بخاطره وتحفزه إلى العمل ، وإيضاح هذه الكلمات بإسهاب ينتهى بنا إلى ما أجملنا .

* * *

إخالك أيها القارىء قد اطمأننت أو ازددت اطمئناناً بالطرق الحديثة وبأن أثرها أقوى وأقوم من وجوه شتى .

فماذا نحن فاعلون بعد هذا ؟ وماذا عسى أن يعمل المعلم ؟ وأى طريقة من الطرق الحديثة يتبع ؟ .

والجواب على هذا هو أن اتباع طريقة بعينها ليس إلا تقليدا والتقليد ليس الطريق المأمون ، وأجمل منه وأمثل أن نرجع الى الدعائم الأساسية الكامنة فى ثنايا الطرق الحديثة فنبنى على قواعدها الطريقة الملائمة لحياتنا وبيئتنا ، الموافقة لنظامنا ومطالبنا . فاذا صحت العزائم على تنفيذ هذا ، فالسبيل واضحة والطريق ممهد قويم ؟

قضية الأطفال

لحضرة الأستاذ زكى المهندس
أستاذ التربية بدار العلوم

نعم هى قضية ولكنها ليست من هذا الطراز الذى ألف الناس أن يقرءوه فى الصحف او يتنادروا به فى مجالسهم ويسمروا به مع رفاقهم بل هى قضية لها شأنها وخطرها ، ولها أثرها البعيد فى حياتنا جميعا كآباء ومعلمين . وماظنك بقضية تتناول مئات الألوف من أحداث مصر ؟ بل ماظنك بقضية يتوقف على الفصل فيها حياة الجيل المقبل بأسره ؟ أليس أطفال اليوم هم شباب الغد ورجال المستقبل ؟ تلك القضية هى التى سأتحدث إليك فيها

فى مثل هذه الأيام من العام الماضى قامت وزارة المعارف بتغيير واسع النطاق فى منهاج التعليم الثانوى فتناولته بالحذف والتحوير ونقل بعض المواد أو الموضوعات الدراسية من سنة إلى أخرى وقد حمد لها الشباب المتعلم هذا الصنيع ، واليوم تقوم الوزارة بعقد اللجان المختلفة لدراسة المنهاج الابتدائى تمهيدا لتغييره كذلك

وإن تلك الطفولة البريئة الطاهرة التى تزخر بها مدارسنا الابتدائية لتغتبط أشد الاغتباط إذ تلقى اليوم بقضيتها فى اطمئنان وثقة بين جمع من ذوى الكفاية الممتازة والخبرة الناضجة من أهل التعليم والتشريع مؤملة أن تجد فى حضراتهم خير مدافعين عن حقوقها ، وهى لاتبغى شيئا أكثر من أن يسمح لها بأن تستمتع بتلك الحياة الطبيعة الخصبة تلك

الحياة الواسعة الباسمة الحرة البريئة . تلك الحياة التي أبت المدارس بنظمها الجامدة وأساليبها المصطنعة ومناهجها المكتظة الحافلة وامتحاناتها المتوالية إلا أن تحولها إلى حياة عابسة راكدة مجدبة ضيقة ذهبت بخير ما في الطفولة من مزايا وقضت أو كادت تقضي على ما منحته الطبيعة من مواهب .

إن سنة ١٩٢٥ تعتبر بحق حداً فاصلا بين عهدين من عهود التعليم في مصر فقد بدأت في تلك السنة نهضة تعليمية لم تكن في شدتها وعنفها بأقل من ثورتنا السياسية . كلنا يذكر أن النظام التعليمي القديم كان يرمي في مجموعه إلى صوغ آلات تسخر للحكومة ولا تصلح إلا لمكاتب الحكومة ولقد كان الجزع يتولانا أحيانا والقلق يساورنا دائما كلما ذكرنا مصير أبنائنا وفلذات أكبادنا فلم يكن غريبا ـ وقد أصبحنا أحرارا في تدبير شؤوننا ـ أن نثور على هذا النظام العتيق الذي تعلمنا في ظله وفي كنفه نصف قرن كامل ، على أن ثورتنا في هذه الناحية التعليمية لم تكن وليدة يومها ولا بنت ساعتها وإنما كانت تعبيرا صادقا عما كنا نحسه ونألم له ونخشى الخوض فيه هاجمنا هذا النظام القديم من جميع جوانبه ونواحيه ، هاجمناه في خططه ومناهجه وطرائقه وأساليبه . هاجمناه في غاياته ووسائله وفي جميع مراحله ، هاجمناه في كل ذلك في غير رفق أو هوادة ، ولكن الذي لا يسع كل إنسان إلا أن يلاحظه ويأسف له هو أننا ظللنا نجهد عشر سنوات كاملة في تجارب تعليمية من كل صنف ثم لم نظفر بعد تلك الجهود التي بذلناها بنتائج تطمئن إليها قلوبنا ، وترتاح لها نفوسنا ، فالمناهج تتغير اليوم كما تغيرت بالأمس وقبل الأمس وكما تغيرت في سنة ١٩٢٥ وكما نخشى أن تتغير غداً وبعد غد إن أخطأنا التوفيق في كشف العلة واستئصال الداء

نحن أول من يدرك أن حياتنا تطورت في جميع مناحيها تطورا تجاوز في طبيعته ومداه ما كان يحلم به أصدق الكتاب فراسة وأبعدهم نظراً ،

ونحن أول من يدرك كذلك أن القائمين على شئون التعليم يبغون اليوم من تغيير المناهج - كما كانوا يبغون دائماً من كل تغيير سابق - أن يستحدثوا نوعا من التعليم يساير حاجات البلاد ويلائم ماتطمح إليه الأمة من مقاصد وما ترمى إليه من آمال ، نحن ندرك هذا ونؤمن به ، ولكنا يجب أن نسلم بأن اختلاف الطرائق وتشعب المسالك ، وتعدد الأساليب لتحقيق هذه الغاية المرجوة قد أفضى كل ذلك إلى شىء من الإسراف فى جهود رجال التعليم كما أدَّى إلى شىء من الاضطراب كان له أثره فى عمل المعلم والمتعلم كليهما .

حسبك أن تجوس بذاكرتك خلال السنوات العشر الماضية لتدرك أن جميع من تولوا مقاليد الوزارة وهيمنوا على التعليم كانوا دائما جد حريصين على وضع سياسة تعليمية ثابتة ، ولكنهم كانوا يعملون على تحقيق هذه الغاية بطرق مختلفة وأساليب شتى . فقد كانت اللجان تؤلف أحيانا من رجال الديوان وحدهم ، وأحيانا يضم إليهم بعض المتصلين بالمدارس عن كثب من نظار ومدرسين . وآونة يشترك مع مؤلاء جمع من ذوى الكفايات الفنية والثقافات العالية ، وإن ننس لاننس ذلك المؤتمر الحاشد الذى جمعه وزير المعارف السابق . فقد كان قوامه كبار رجال التعليم ومديرى المصالح الفنية فى مصر ، ومدير الجامعة وعمدها . هذا إلى عدد كبير من القائمين على التعليم فى المدارس الأجنبية ممن لم تطأ أقدامهم شارع الطرقة الغربى غير مرة واحدة كانت هى الأولى والأخيرة . لم يكد هذا المؤتمر يجتمع حتى تفرق ولم يكد يتفرق حتى أصبح - كما قال النحويون - فى خبر كان

ليس لهذا كله إلا تأويل واحد ، هو أن العلة مازالت كامنة والداء ما فتئ دفينا فى بعض النواحى من نظامنا التعليمى ، وأن جميع ما قمنا به من تجارب وكل ما أدخلناه من ضروب التبديل ، وما استصدرناه من لوائح

وقوانين ومنشورات قد عجز إلى الآن عن كشف العلة واستئصال الداء أو عجز على الأقل عن تدبير الدواء الصالح

هذه ملاحظات عامة نسوقها بكل تواضع لتكون بمرأى من حضرات السادة أعضاء اللجان، لعلهم واجدون فيها مايضىء السبيل أمامهم ولكننا نتحدث هنا عن قضية الأطفال

أما أن التعليم الابتدائى لايزال فى حاجة إلى تغيير واسع النطاق فمما لا يختلف فيه رجال التعليم ،ولكن أين موطن العيب فى هذا النوع من التعليم ؟ وإلى أى النواحى يجب أن نولى وجوهنا لكشف هذا العيب وعلاجه ؟ فهل الفكرة العامة التى تسيطر على تعليم النشء الصغير خاطئة أوقاصرة، أو أن أعمال التعليم نفسهاعاجزة مقصِّرة ؟ هل العيب واحد من هذين الأمرين أوهما جميعا . أولا هذا ولا ذاك بل هو التنافر وعدم الانسجام بين المبادىء والأعمال ؟ أليس من المحتمل أن تكون علة الضعف هى الامتحانات والعناية بها والإسراف فيها ،أوهى المناهج وما تحمله من مسائل لاتسيغها تلك المدارك الفجة ولا تحتملها تلك الكواهل الصغيرة اللينة . أو هم المعلمون وطرائقهم وأساليبهم .أوالنظم المدرسية العامة ، وما هى عليه من شدة أو لين ؟ نقول أليس من المحتمل أن يكون واحد من أولئك أو تكون كلها أو بعضها موطن الضعف وعلة النقص فى تعليم هذا النشء الصغير ؟ كل هذا جائز محتمل ولكنه يعنى أن الشروع فى أى تغيير مهما كان نوعه لايمكن أن يفيد الفائدة المرجوة مالم نتعرف الداء فى مواطنه ونتحسسه فى مظانه ،أما أن تقتصر أعمالنا على تغييرات جزئية من حذف مادة وإضافة أخرى أو « ترحيل » موضوع أو جزء من موضوع من سنة إلى سنة سابقة أو لاحقة فكل ذلك لايعدو أن يكون من باب التخفيف أو التسكين المؤقت ولكنه لايؤدى بنا إلى تلك الغاية

التى ننشدها جميعا من إقامة نظامنا التعليمى على أساس ثابت مكين

ويخيل إلينا بل نكاد نجزم بأن الفكرة العامة المسيطرة على التعليم الابتدائى هى موطن الداء وأس البلاء، نعم هى الفكرة العامة التى تحتاج إلى إعادة النظر قبل أن نشرع فى تعديل المنهاج، فما الأساس الذى كان وما زال يقوم عليه منهاج المدارس الابتدائية فى كل تعديل سابق ؟ ما الغاية التى نرمى إليها من التعليم الابتدائى ؟ جميع رجال التعليم يجيبونك من فورهم بأن غاية هذا النوع من التعليم « إعداد الأطفال للمدارس الثانوية » وقد يردفون جوابهم هذا بأن نحو ٨٥ ./. ممن أتموا المرحلة الابتدائية يقصدون إلى المدارس الثانوية ولا يبغون عنها حولا ، أو على الأقل كانت الحال كذلك من بضع سنوات قبل انتشار المدارس الصناعية، ومن ثم كان كل تغيير يراد إدخاله على منهاج الابتدائى يجب ان يجرى فى ضوء هذه الفكرة وفى حدودها فإذا لاحظت أن منهاج التعليم الثانوى قد عدل فى العام الماضى وحدد مبدؤه ونهايته وعرف أوله وآخره وإذا لاحظت كذلك أن من الواجب — كما أشار معالى الوزير فى خطبته يوم عقد اللجنة — أن نحكم الربط بين مرحلتى الابتدائى والثانوى ونؤكد الصلة بين منهاجيهما إذا لاحظت ذلك كانت النتيجة الطبيعية التى لا مفر منها والتى لا نجد عنها محيصاً هى أن الطفل فى هذه المرحلة الابتدائية يجب أن يلم بمختلف المسائل والمواد والموضوعات التى تؤهله للاستمرار فى الدراسة الثانوية ، وإن شئت فقل إن منهاج الثانوى يجب أن يكون المسيطر على كل ما يعلم فى الابتدائى فإن شاء وسّع من نطاقه وإن شاء نقص من أطرافه .

هذا هو الوضع الذى شاءت التغييرات السابقة كلها أن يكون للتعليم الابتدائى فهو إعداد للتعليم الثانوى ويجب ان يلم الطفل فيه بما يؤهله للتعليم الثانوى ومادام منهاجه الثانوى قد حدد وعرفت مبتدآته فمن واجب التعليم

الابتدائى أن يزود الأطفال بمادون ذلك من حقائق ومسائل وموضوعات ليتسنى لهم الاستمرار فى التعليم الثانوى ، فهل تعجب بعد ذلك إذا شعرنا كما تشعر الوزارة نفسها — بأن منهاج هذا النوع من التعليم ما زال يحمل من الموضوعات والمسائل ما لا يتفق هو ومدارك الأحداث ؟

ماذا يصنع واضع المنهاج إذا كانت فكرة الإعداد للمدارس الثانوية لا تبرح خياله ؟ ماذا يَضَع وماذا يَدَع إذا كان يعمل تحت تأثير الإعداد للمدارس الثانوية ؟ هو لا يفكر فى هذه المرحلة التى يضع لها بقدر ما يفكر فى المرحلة التى تليها ، هو لا يفكر فى الطفل ولكنه يفكر فى الشاب الذى سينتهى إليه الطفل بل هو يحرص على أن يسرع بالطفولة إلى دور الشباب ويعجل بها إلى تلك الحياة التى تنتظرها والتى لا بد ستحياها إن عاجلا أو آجلا .

هذه واحدة ولكنها لا تعبر — كما يقول الإنجليز — إلا عن نصف الحقيقة فاسمع الباقى ، كيف نطمئن إلى أن أطفالنا قد ألموا إلماما كافياً بتلك الحقائق والموضوعات والمواد التى تهيئهم للتعليم الثانوى وتجعل استمرارهم فى تلك المرحلة المقبلة ممكنا ميسورا ؟ جواب ذلك واضح بسيط . الامتحانات ! ! امتحانات شهرية ، امتحانات سنوية ، امتحانات شفهية وتحريرية ، امتحانات تجريبية ، امتحانات كلما حضر مفتش أو ألم بالمدرسة مراقب ، امتحانات كلما أراد الناظر وهو لا يريد إلا الامتحانات ، ولا يعمل إلا للامتحانات ، امتحانات حيثما حللت وأينما ذهبت وقد سرت عدوى الامتحان إلى ما دون المدارس الابتدائية من رياض الأطفال .

وزاد الأمر ضغثا على إبالة الاعتقاد السائد بأن نتائج الامتحان مرتبطة بعمل المعلم أن خيراً فخيراً وأن شرا فشرا ، وأن المعلمين يجب أن يدركوا أن الوزارة لا تتوانى فى أخذهم بالنواصى والأقدام إن ساءت نتائج

الامتحان وليس المعلم وحده بل نظار المدارس ومفتشوها ومراقبوها أيضاً فقد أصبح الجميع تحت رحمة الامتحان ونتائج الامتحان . الواقع أن رجال التعليم أنفسهم قد أصبحوا فى حيرة من أمر هذه الامتحانات ، فهم مضطرون من جهة إلى مجاراة سواد الناس فيما يرجونه لأبنائهم من توفيق فى الامتحانات ، لكنهم يشعرون من جهة أخرى بأن عليهم تبعة شاقة نحو تعليم الأحداث تعليما ينمى مواهبهم ويهذب ميولهم ويعدهم للكفاح والمجالدة فى الحياة فهل من المستطاع أن نوفق بين الأمرين ونجمع بين الغايتين ؟ إن جميع التجارب والمشاهدات تدلنا من سوء الحظ على أن الجمع بينهما متعذر إن لم يكن مستحيلا مادام نظامنا التعليمى يسير على النهج الذى رسم له حتى الآن ، فالظاهر أن العناية بالتربية والعناية بالامتحانات تسيران فى اتجاهين متضادين أو تسيران على الأقل فى خطين متوازيين يستحيل علينا أن نجمعهما فى نقطة واحدة إلا إذا أدخلنا على أحدهما تعديلا يخرجه عن نظامه وشكله وطبيعته ، ولقد بذلنا فى سبيل ذلك جهوداً متصلة ولكن كفة الامتحان قد رجحت كل شىء وسادت كل شىء حتى أصبحت الشاغل الأكبر الذى تستهان فيه العزائم وتسترخص الهمم وتتنافس فيه جميع المدارس والهيئات التعليمية فإنه كلما ذكرت التربية أو التعليم وثب إلى خيالنا النهايات الصغرى والكبرى والنسب المئوية للنجاح والرسوب ، أما الطفولة ومواهبها وحقوقها ، أما تربية المدارك وشحذ الملاحظة واستثارة النشاط الذاتى فى الأحداث . أما تغذية العواطف وتهذيب الخيال وتقوية الشخصية وبعث الشعور بالانسانية فكل ذلك هباء فى هباء ، كله عبث وباطل ومحال ، كله تلفيق من مبتكرات المربين وأوهام العلماء وأحلامهم ، ثم كيف تستطيع أن تحمل المدرس على العناية بشىء من ذلك وبين يديه منهاج حافل مشحون ، وسوط الامتحان يلهب

ظهره ، وسيف العقوبة مصلت فوق رأسه .

هـذا هو الشطر الثانى من قصة التعليم الابتدائى وهل،أنا بحاجة إلى أن أسجل هنا ما تردده ألسنة رجال التعليم فيما بينهم من أن مدارسنا « قد أصبحت أشبه بمعامل للنجاح فى الامتحان منها بمعاهد للتربية »

الواقع أن مشكلة التعليم الابتدائى تكاد تنحصر فى أمرين لا ثالث لهما (أولهما) العناية باختيار نوع التجارب التى تقدم للأطفال فى هذه السن الصغيرة .

(وثانيهما) الأسلوب الذى يجب أن يتبع فى تزويد النشء بهـذه التجارب،فالتعليم الابتدائى يكون الشطر الأكبر من الطفولة،ويجب أن يمتاز من بين مراحل التعليم الأخرى بهذين الأمرين،لكن فكرة الإعداد للمدارس الثانوية قدذهبت بالأول على حين قضت الامتحانات والإسراف فيها على الثانى .

هذه صورة عامة مجملة من عيوب التعليم الابتدائى لا يخامرنى شك فى أنها ستنال من عناية اللجنة أوفى نصيب ،أما وجوه الاصلاح فسأرجئها إلى العدد التالى إن شاء الله .

الرجل والمرأة

اختلافهما فى التكون الجسمى وفى الاستعداد والمواهب العقلية والخلقية

لحضرة الأستاذ حامد عبد القادر
وكيل كلية أصول الدين

(١)

إن الرجل لا يختلف عن المرأة من حيث كونه فرداً له مزاجه وطباعه وسجاياه الخاصة فحسب ولكنه يختلف عنها أيضا من حيث كونه رجلا، كما أنها تختلف عنه من حيث كونها امرأة، بل إن هناك فروقاً جسمية هامة مشاهدة بين الرجل والمرأة، وهذه الفروق الجثمانية تعد موازنة لفروق عقلية ليست بأقل منها أهمية، والمعقول أن يكون لهذه الفروق الجسمية والعقلية آثار فى السلوك.

وإن التاريخ الإنسانى ليبرهن لنا على صحة هذه النتيجة، إذ أن وظائف المرأة فى الحياة لم تكن فى يوم من الأيام مساوية لوظائف الرجل وإن قانون الرقى المستمر الذى يعمل عمله فى الحياة الإنسانية يدل على أن الرقى لا يمكن أن يكون إلا بتوزيع الأعمال، وتخصص كل من الجنسين لأعمال خاصة، والتخصص فى الأعمال والوظائف يتبعه على مر الزمن زيادة ظاهرة فى التكون الجسمى، فليس لنا أن نأمل التقارب والتشابه الشديد بين الجنسين إلا إذا كنا نأمل أن نقترب من الحياة الساذجة الأولى التى لم يكن فيها إلا قليل من توزيع الأعمال وتخصص بعض الأفراد لبعض الوظائف. وإنك لو بحثت لوجدت أن اختلاف

الجنسين ليس من الظهور بين الأمم المتوحشة التى هى بمعزل عن الحضارة كما هو بين الأمم المتمدينة .

هذا ولا تزال الحوادث التاريخية تبرهن لنا فى عصرنا الحاضر على أن مساواة المرأة للرجل فى الأعمال والوظائف تؤدى إلى انقلاب اجتماعى ، وقد يؤدى هذا الانقلاب إلى ثورة عنيفة ضد النظم والقوانين الاجتماعية ثورة لا يعلم إلا الله تعالى مداها وعواقبها . وليس هنا موضع الكلام على هذه الثورة ، ولا البحث فيما يكنه لنا المستقبل من الانقلابات الاجتماعية الخطيرة ، ولكننا نزيد أن نقول إن المشاهدات والتجارب قد برهنت على أن المرأة ليست كالرجل فى الاستعداد الجسمى ، ولا فى المواهب العقلية ولا فى النزعات الخلقية .

(٢)

أما الفروق الجسمية التى بين الرجل والمرأة فواضحة جلية : إذ مما لا شك فيه أن المرأة لا تختلف عن الرجل فى صفاتها الخاصة بالأنوثة فحسب ، ولكنها تختلف عنه أيضاً من حيث التكوين الجسمى والوظائف الجثمانية فى الجملة ، فهيكلها العظمى ليس كهيكله العظمى تماماً ، يدلك على ذلك أن الخبير بفن التشريح وعلم وظائف الأعضاء يستطيع أن يميز بقايا المرأة العظمية من بقايا الرجل مستنداً فى ذلك إلى الفروق الدقيقة التى بين هذه وتلك . ومن المعلوم أن هناك فروقاً ظاهرة بين جمجمة الرجل وجمجمة المرأة . ومن الثابت بالتجارب أن مخ الرجل مختلف فى شكله ووزنه وحجمه عن مخ المرأة . وكل منا يلاحظ أن البنت تسلك فى نموها الجسمى طريقاً خاصاً ليس كطريق الغلام ، وأن لكل طرقاً خاصة فى الحركات والسكنات والمشى والجلوس والوقوف والصوت ونبراته ، ولهجة التخاطب إلى غير ذلك مما هو معروف مشاهد .

وليست بنا حاجة إلى الإسهاب فى بيان الفروق الجسمية الجنسية ، ولكن يهمنا كثيراً جدا أن نوجه نظرك إلى ثلاث حقائق من الواجب العناية بها بنوع خاص ؛ لأنها ترشدنا عند وضع النظم والمناهج الخاصة بتربية البنت ، تلك الحقائق هى :

أولا : أن البنت أضعف جسما وأقل قوة من الغلام . فليس لديها من النشاط العصبى المتوفر إلا جزء يسير لا يكفى لأن يعوض عليها ما عسى أن تبذله من نشاط فى الأعمال العقلية الزائدة على طاقتها العصبية . ومعنى ذلك أننا إذا كلفنا البنت القيام بتلك الأعمال العقلية الشاقة المجهدة للمخ والأعصاب التى نكلف الغلام القيام بها فإنها لا تستطيع النهوض بأعبائها إلا إذا نهكت قواها الجسمية والعقلية وضحت بجزء كبير من صحتها العامة

ثانياً : أن الأعضاء التناسلية فى المرأة تقوم بأعمال أشق مما تقوم به الأعضاء التناسلية فى الرجل . ومن الثابت لدى العلماء بوظائف الأعضاء أن هناك علاقة متينة بين الجهاز التناسلى وبين الجهاز العصبى عامة والمخ خاصة بحيث إن إجهاد أحدهما يؤدى لا محالة إلى إجهاد الآخر ، فإذا طالبنا المرأة بأعمال عقلية مجهدة لقواها المخية العصبية مساوية لأعمال الرجل نشأ عن ذلك اضطراب فى وظائفها التناسلية أعظم من الاضطراب الذى يحدث للرجل ؛ أى أن مقدرتها التناسلية تصير أقل من مقدرة الرجل فى تلك الناحية .

ثالثاً : أن الاضطراب الذى يحدث فى نظام الجهاز التناسلى ويقلل من قدرته على تأدية وظيفته يؤدى بالضرورة إلى ضعف فى النسل . وإذا كان ذلك الاضطراب عاما فإنه يؤدى دون شك إلى تدهور النوع الانسانى . وإذا أثقلنا كاهل المرأة وارهقناها وحملناها ما لا طاقة لها به من الأعمال العقليه ازداد اضطراب جهازها التناسلى وازداد تبعاً لذلك تدهور النسل وضعف النوع الإنسانى .

(٣)

هذا من حيث الاختلاف فى الاستعداد الجسمى ، أما الاختلاف فى المواهب العقلية والنزعات الخلقية فليس بأقل ظهوراً ولا أقل خطرا

فالمرأة تنظر إلى العالم متأثرة بوجدانها أكثر من الرجل ، ومزاجها أقرب ما يكون إلى المزاج الانفعالى ولذا يشتد تأثرها بجمال الأشياء وتناسبها مع بيئتها ، وتقل عنايتها بالأفكار المجردة . وإذا حاولت التعميم والوصول إلى قواعد كلية عامة فانها لا تعنى بالتحليل والتحقيق والتدقيق والبحث العميق ، وهذا هو السبب فى أنها تميل إلى التسرع فى الحكم والخطأ فى التطبيق ، وكراهة التحليل المنطقى العميق البعيد المدى الذى يصل به الرجل إلى القوانين العلمية الصحيحة يعد من أهم ما تمتاز به المرأة عن الرجل . والمرأة عملية أكثر منها فلسفية ، أما الرجل فيميل إلى النظريات ، ويجنح إلى التفلسف والتدبر والتفكير فى العواقب ، فاذا رأى خطراً محدقاً به فكر فى وسائل تجنبه وهو هادىء الفكر وربما اعتراه ألم وضجر ، وقد يثور أو يغضب او يسب ويلعن إذا لم يصل إلى نتيجة مرضية . وأما المرأة فانها تبكى وتصيح وتولول فى وجه الخطر ، وقد يعتريها اضطراب عصبى يحول بينها وبين التفكير والتروى

ثم إن الرجل ينظر إلى أسرار الأشياء وبواطنها ، ويعتد بقيمها الذاتية الحقيقية وحقائقها الواقعية ولا يغتر بظواهرها ، أما المرأة فتغرها الظواهر ، وتعجب بحسن المنظر وإن ساء المخبر ، فالجواهر الزائفة الحسنة الشكل المنسجمة الصوغ تقع لديها موقعاً حسناً وإن كانت قليلة القيمة فى ذاتها . والرجل مستعد بطبيعته وقواه الجسمية إلى الزعامة والقيادة ، لقدرته على التصرف عند المواقف الحرجة ، وعلى الابتكار للخروج من المآزق بسرعة ومهارة ، أما المرأة فإنها لا تبلغ منزلة الرجل

فى ذلك، وان كانت تفوقه فى الصبر والجلد، والقدرة على المقاومة، والسرعة فى التنفيذ؛ ولذا يقال إن الرجل أكثر استعداداً للتشريع والابتداع، أما المرأة فأكثر استعداداً للتنفيذ، ومن ثم كانت الأغلبية الغالبة من القادة والمشرعين والمبتدعين من الرجال، ولم يعرف عن امرأة أنها برزت فى عالم العلم أو ابتكرت آلة نافعة، والمرأة بصبرها وقوة وجدانها وحنوها وشفقتها مستعدة استعداداً طبيعياً لأن تكون أماً وطبيبة وممرضة وسلوة للرجل إذا حلت به النكبات، أو استولت عليه الهموم، أو تحكمت فيه الأمراض.

(٤)

وهذه الفروق وتلك الاختلافات لا تظهر واضحة جلية إلا بعد النمو والكبر، أما فى عهد الطفولة الأولى فإن هذه الفروق تكون صغيرة غامضه؛ فالذكر والأنثى لا يكادان يختلفان عند الولادة، وبعد ذلك تأخذ فروق ما فى الظهور؛ فأنت إذا رأيت بنتا صغيرة سنها أربع لا تشك فى أنها بنت صغيرة حقا، وإذا رأيت طفلا فى هذه السن علمت أنه طفل صغير بلا ريب.

والبنت فى العادة تسبق الطفل فى القدرة على الكلام، وقلما تصاب باضطراب فى أعضاء التكلم، ومعنى ذلك أن المراكز العصبية والخيوط العصبية الوصلية المرتبطة بالتكلم تنمو فى الصبية قبل نموها فى الصبى.

ويلاحظ أن لعبها يختلف فى النوع والأسلوب عن لعب الطفل سواء ألعبت وحدها أم مع غيرها، فلعبها ينقصه النشاط فى الحركة وسعة النطاق التى تلاحظ فى لعب الطفل. وهى تصل إلى مرتبة اللعب التقليدى قبل الطفل، وتبقى فى هذه المرحلة أكثر مما يبقى. ومن المشاهد أنها تولع حتى فى عهد الطفولة الأولى باللعب بالدمى ومعاملتها معاملة الأطفال

فتلبسها ملابسها ، وتحملها إلى مراقدها ، وتحاول إطعامها كما أنها تحنو على الحيوانات الداجنة وتطعمها كلما سنحت لها الفرصة ، أى أنها تحاكى أمها فى أداء وظيفتها كأن طبيعتها تملى عليها أنها ستصير يوما ما من الأمهات .

والبنت تفوق الطفل فى إظهار شعورها بحدة ، فهى تضحك وتبكى بصوت مرتفع ، وتظهر تأثرها ببيئتها بسرعة وشدة ، ولكنها تميل إلى الانزواء والمقاومة السلبية إذا أغضبها أحد ، فى حين أن الطفل يحتد ويقاوم مقاومة إيجابية عند الغضب .

والبنات لسن كالبنين عند حصول نزاع فيما بينهن ، فهن يشكون ويبكين ويسببن فى حين أن البنين عند النزاع يتقاتلون ويتضاربون ويهاجم بعضهم بعضا مهاجمة فعلية كأن طبيعتهم تملى عليهم أنهم سيصيرون رجالا مسئولين عن الدفاع عن أنفسهم وذويهم .

والنزاع لا يحسم بين البنات حسما ، ولكن آثاره تبقى مدة طويلة وقد يسعى بعضهن فى الكيد والدس لبعض . ولكن البنين كثيرا ما يتصالحون ويتصافون بعد انتهاء التشاجر

وفى الغالب يتلون التنافس بين البنات بألوان سيئة وأخلاق مكروهة كالحقد والكراهة وحمل الضغينة ولاسيما ضد من كانت منهن موضع التفات وعناية من بعض الأقارب او الاصدقاء .

هذه هى خلاصة الفروق الجنسية الجسمية والعقلية والخلقية العامة وموعدنا فى العدد الآتى إن شاء الله أن نبين بعض فروق تفصيلية خاصة بالحياة المدرسية ، ونتكلم عن نتيجة هذا البحث من الوجهة التعليمية .

« له بقية »

الــــغريزة

أمثلة من الغرائز

بقـــلم
الدكتور على عبد الواحد وافى
أستاذ التربية وعلم النفس والاقتصاد السياسى بدار العلوم
وقسم التخصص بالأزهر

رأينا قبل الشروع فى دراسة الغريزة أن نضع أمام القارىء أمثـلة منها ، حتى لا ندخل به فى تفاصيل البحث إلا بعد أن تتكون لديه فـكرة مجملة عن موضوعه ، وحتى تـكون هذه الأمثـلة دعامة لدراستنا وموئلا نرجع اليه كلما دعت الحاجة الى تحليل خاصة ، أو استنباط تعريف ، أو شرح نظرية ، أو نقد رأى ، أو بسط دليل ، أو بيان وظيفة ، أو رجع فرع لأصله ، أو إدخال جزئيات تحت أنواعها العامة .

ولذلك حرصنا على أن تكون هذه النماذج من الظواهر التى لم يكد أحد يعارض فى تسميتها غرائز وأن تكون متنوعة وممثلة لشتى المظاهر الغرزية فى مملـكة الحيوان ناطقه وأعجمه .

ولما كان غرضنا هنا مجرد سرد أمثلة تحاشينا الدخول فى التفاصيل واكتفينا بوصف غاية فى الاجمال لـكل غريزة من الغرائز التى تتضمنها أمثلتنا .

١ — غريزة طلب الغذاء : وهى استعداد فطرى يدفع الحيوان صغيره وكبيره إلى طلب قوته . وتختلف مظاهر هذا الاستعداد فى أصناف الحيوانات بحسب اختلافها فى تكوينها الجسمى الظاهرى والباطنى وفى بيئتها الأقليمية والأسرية والاجتماعية وفى نوع الغذاء الصالح لها . — فمن الواضح أن الطرق التى تلجأ إليها آكلة اللحوم فى طلب قوتها غير ماتلجأ إليه آكلة النبات ، وماتسلكه الدواب عامة لهذه الغاية غير ماتسلكه الطيور وما يتبعه سكان الأرض والهواء غير مايتبعه سكان المياه . . . ، كما أنه من الواضح كذلك أن لصغار كل طائفة وسائل خاصة لطلب قوتها : فصغار الحيوانات الثديية تبحث عن أثداء أمهاتها بمجرد ولادتها وتندفع إلى امتصاصها ، وأفراخ العصافير وماشا كلها تحملها غريزتها هذه على فتح أفواهها لتلتقم ما يضعه فيها أحد أبويها من الغذاء ، وأفراخ الدجاج وفصيلتها تندفع بفطرتها إلى اتباع أمهاتها ملتقطة بنفسها ماترشدها إليه هذه الأمهات من القوت ، على حين أن صغار معظم الحشرات والأسماك تستقل فى طلب غذائها استقلالا تاماً عن أصولها وتبحث عنه بمجرد خروجها إلى الحياة بنفس الوسائل التى يتبعها كبارها . . . وهلم جرا .

٢ — غريزة الخطر Instinct de danger : التى تسمى أحيانا بغريزة الخوف وأحياناً بغريزة الهرب والتى يقسمها بعضهم إلى غريزتين يطلق على إحداهما غريزة الخوف أو الهرب وعلى الأخرى غريزة الغضب أو المقاتلة . — وهى استعداد فطرى يحمل الحيوان على أن يخشى طائفة خاصة من الحيوانات والأشياء التى من شأنها فى الحال أن تهدد حياته أو تصيبه بأذى أو كانت فى الأصل مصدر خطر له ويعمل على اتقاء شرها بوسائل فطرية تختلف فيها الحيوانات اختلافا كبيراً ، منها مجرد العدو ، ومنها الفرار المنظم ، ومنها الصراخ والاستغاثة ، ومنها الاختفاء ، ومنها إخفاء

عضو من أعضاء الجسم (كالنعامة فإنها تكتفى أحيانا أمام الخطر بإخفاء رأسها فى الرمل) . ومنها التخلص من عضو يترتب على التخلص منه نجاة الحيوان . [قد زودت عدة طوائف من الحيوانات باستعداد جسمى يساعدها على التخلص من بعض أعضائها عند الخطر ، فلو قبض الصائد على رجل من أرجل « الكراب » (وهو حيوان بحرى صغير) ترك الحيوان هذه الرجل بيد الصائد وفرهارباً] ومنها وقف الحركة وقفا تاما يحاكى به الخائف الأموات ، ومنها الدفاع بوخز العدو أو عضه أو خدشه بالمخالب أو رفسه أو نطحه أو لطمه أو عضه بالمنقار وضربه بالجناح (ولا تبد وهذه الظاهرة عند كبار الطيور فحسب بل تظهر كذلك عند صغارها قبل أن تنمو أجنحتها ويصحبها غالباً انتفاش الفرخ وغضبه) أو مهاجمته ومقاتلته . . . وهلم جرا .

٣ — الغريزة الجنسية : وهى ميل فطرى يدفع كلا من ذكور الحيوانات وإناثها فى مواسم معينة أو تحت تأثير حالات جسمية ونفسية خاصة الى الاتصال بالجنس الآخر اتصالا تناسليا ينجم عنه التلقيح ، وتختلف الوسائل الفطرية التى تلجأ اليها الحيوانات فى هذه السبيل باختلاف فصائلها .

فعند كثير من الحيوانات العليا تتم عملية التلقيح داخل الجسم باستخدام أعضاء خاصة لذلك على النحو المتبع عند الإنسان — وعند بعضها تتم عملية التلقيح داخل الجسم كذلك ولكن باستخدام أعضاء غير مقصورة على هذه الوظيفة . ففى فصيلة العناكب يستخدم الذكر أطرافه الأمامية فى إيصال السائل المنوى إلى داخل جسم الأنثى مع احتفاظه بهذه الأطراف ؛ وفى فصيلة الأخطبوط يستخدم الذكر كذلك أحد أطرافه الأمامية غير أن هذا الطرف ينفصل عن جسمه ويبقى

بجسم الأنثى ويتم التلقيح بوساطة مايحمله من السائل المنوى . — وقد تتم عملية التلقيح داخل الجسم بدون اتصال الذكر بالأنثى اتصالا مباشراً : ففى بعض الأصداف يلقى الذكر السائل المنوى فى الماء فتحمله تيارات مائية إلى داخل جسم الأنثى . — وعند كثير من الحيوانات المائية الدنيا يتم التلقيح خارج الجسم . ففى كثير من فصائل الأصداف يلقى الذكر سائله المنوى والأنثى بويضاتها فى الماء ، فإذا اتفق مرور تيار مائى يحمل سائل الذكر على بويضات الأنثى تم التلقيح : وفى الأسماك تتخذ كل من الذكور والاناث احتياطات فطرية لضمان التلقيح ، فتغوص الأنثى إلى قاع المجرى وتحفر فيه حفرة تضع فيها بيضها وتندفع الذكور وراءها بغريزتها متقاتلة متنافسة ، فإذا ما فرغت الأنثى من عملها قذفت الذكور بسائلها المنوى صوب الحفرة ؛ وتبالغ الضفادع بغريزتها فيما تتخذه من الاحتياطات فى هذه السبيل ، ففى موسم التلقيح تنتقل الأنثى من مخبئها الشتوى إلى البرك فإذا ما صادفها ذكر لف أطرافه الأمامية حولها (ويلاحظ أن أطرافه الأمامية تنمو فى هذا الموسم نموا يسهل لها القيام بهذه العملية) وقبض عليها قبضاً عنيفاً وظل قابضاً عليها حتى تلقى بيضها فى الماء فيصب عليه سائله المنوى ، وقد يظل قابضاً عليها لهذه الغاية أياماً بل أسابيع .

٤ — غريزة الأبوة . وهى استعداد فطرى عند كثير من الحيوانات يحمل كبارها على العطف على صغارها وعلى القيام بما يلزم لحياتها حتى تبلغ سنا معينة . وقد زود بهذه الغريزة الأب وحده فى بعض الطوائف (كالنعام والتاليجال الذى سنتكلم عنه فى الغريزة ٧) ، والأم وحدها فى طوائف أخرى (كالأنعام المستأنسة والدجاج والهر والكلب) ، والأب والأم معاً عند بعض الحيوانات الراقية والطيور (كالانسان والأسد

والحمام) ، وغير الأب والأم فى بعض الفصائل [كالنحل ، فإن طوائف العمال هى وحدها التى تقوم فى الخلية بتربية الصغار مدفوعة إلى ذلك بميل غرزى . وطوائف العمال ، كما هو معلوم ، تتألف من إناث عقيمات . فى حين أن الأم (اليعسوب) لا تقوم بشىء البتة حيال صغارها . والآباء (الذكور) تقتلها طوائف العمال بمجرد أن تلقح اليعسوب]. وتختلف مظاهر هذه الغريزة ، كما هو مشاهد ، باختلاف أصناف الحيوانات وباختلاف تكوين صغارها وباختلاف الغرائز التى تولد هذه الصغار مزودة بها وبخاصة غريزة طلب الغذاء . فالوسائل التى تلجأ إليها بفطرتها الحيوانات الثديية للقيام بشؤون صغارها تختلف عن الوسائل التى تلجأ إليها الطيور ، وما تتبعه البقرة للوصول إلى هذه الغاية غير ما تتبعه الهرة ، وما يسلكه كبار الدجاج حيال تربية صغارها غير ما يسلكه كبار الحمام ... وهلم جرا .

٥ — غريزة تكوين الأعشاش . — وهى مشتركة بين جل أنواع الطيور مع اختلاف فى مظاهرها بحسب اختلاف تكوينها وبيئتها وحاجة أفراخها . . . وما إلى ذلك . فمنها ما يقيم عشه على أطراف الأشجار ، ومنها ما يبنيه على قمم الجبال ، ومنها ما ينصبه على سطح الأرض ، ومنها ما يختار النوافذ وسقوف المنازل . . . كما أن منها ما يبنيه من القش ، ومنها ما يبنيه من الريش ، ومنها ما يبنيه من مواد آخرى . وتختلف كذلك الأعشاش فى أشكالها باختلاف الطيور فمنها الكروى ومنها نصف الدائرى . . . . وهلم جرا .

وهذه الغريزة متصلة اتصالا وثيقاً بغريزة الأبوة السابقة .

٦ — غريزة حضانة البيض . — وهى ميل فطرى يحمل الحيوان على احتضان بيضه بشكل يمده بالحرارة اللازمة لفقسه حتى تخرج منه أفراخه . وقد زود به كثير من فصائل الطيور . غير أنه يبدو فى بعض

أنواعها لدى الأنثى وحدها (كما فى بعض انواع الدجاج المستأنس) وفى بعضها لدى الذكر وحده (كما فى النعام : تجتمع طائفة من إناث النعام فى مكان وتبيض كل منها بيضة فيه ، ثم تنتقل إلى مكان آخر وتبيض فيه مجتمعة كذلك ، وهكذا مدة يومين أو ثلاثة ، ثم تأتى الذكور فتتوزع على هذه الأمكنة وتقوم بحضانة مافيها من البيض) ، وفى طائفة كبيرة منها لديهما معا (كالحمام والعصافير) . — وتوجد هذه الغريزة كذلك لدى فصيلة من الحيات تسمى « البيثون » .

وهذه الغريزة ، كالتى قبلها ، متصلة اتصالا وثيقا بغريزة الأبوة حتى إنهما ليعدان مظهرين من مظاهرها .

٧ — غريزة التفريخ الصناعى . — وقد زود بها بعض طيور أشهرها مايسميه الفرنجة بالتاليجال Talégalle (وهو طائر يقطن أستراليا وغينا الجديدة قريب الشبه بما نسميه بالديك الرومى) . لا يحضن هذا الطائر بيضه بنفسه . وإنما تعمد أنثاه ، قبل أن يحين موعد بيضها بعدة أسابيع ، إلى مكان متسع فتجمع فيه كمية كبيرة من أوراق الشجر المتساقطة ومن الأعشاب اليابسة ، ولا يحل موعد بيضها حتى يكون حجم ما جمعته من هذه الأوراق والأعشاب قد بلغ عدة أمتار مكعبة ، ثم تضع فى وسط هذه الكومة بيضها وتغادره تاركة للعوامل الطبيعية شأن تفريخه . فيتولد من تعرض هذه الأعشاب لأشعة الشمس درجة حرارة خاصة تحيط بالبيض وتكفل إنتاجه . وبعد فقسه يقوم الذكر وحده بتعهد الصغار .

ولا يخفى ما لهذه الغريزة من الصلة بغريزة الأبوة .

٨ — غريزة وضع البيض فى أعشاش الغير (وهى إحدى الغرائز التى يسمونها بالغرائز الطفيلية) . — توجد هذه الغريزة عند طائفة من الطيور أشهرها مايسميه الفرنجة « بالكوكو » Coucou الأورنى . — لا يبنى

هذا الطائر لنفسه عشا ، ولا يحاول أن يحضن بيضه بنفسه ، وإنما تعمد أنثاه إلى عش طائر آخر فتبيض فيه بيضة وإلى عش آخر فتبيض فيه بيضة أخرى وهكذا حتى تفرغ مافى عنقودها فى أثناء يومين أو ثلاثة أيام ، وبذلك تصبح تكاليف حضانة بيضها وتربية صغارها ملقاة على كاهل الطيور التى باضت فى أعشاشها . — ولهذه الغريزة الغريبة — كما سنتكلم عن ذلك بتفصيل فى المقالات التالية إن شاء الله — فوائد حيوية كثيرة ، منها أنها تمكن أنثى الكوكو من مغادرة الإقليم الذى باضت فيه كلما دعتها غريزة المهاجرة إلى مغادرته (انظر غريزة ١٢) فمن الواضح أنها لو حضنت بيضها وقامت بتربية صغارها بنفسها لوجب عليها المكث فى الأقليم الذى باضت فيه مدة طويلة ، ولا سيما أنها لا تبيض كل بيضها فى يوم واحد بل فى أيام متعددة ، وذلك مما يطيل مدة الحضانة من جهة ويوجد فى العش أفراخا مختلفة الأعمار فتطول مدة تربيتها من جهة أخرى . هذا إلى أن وضعها بيضة واحدة فى كل عش أجنبى يضمن لكل فرخ من أفراخها غذاء أوفر من الغذاء الذى كان يمكنه الحصول عليه لو قامت هى بتربيته مع إخوته ، وبخاصة إذا لاحظنا أن فرخ الكوكو لا يكاد يخرج من بيضته حتى تظهر لديه بشكل مروع غريزة الاستئثار (انظر غريزة ١٩) التى تحمله على أن يبعد من العش كل ما يشاركه فيه من أفراخ الطائر الذى احتضنه ، فتراه يدفع هذه الأفراخ دفعاً عنيفاً بظهره حتى يقذف بها خارج العش حيث تموت جوعا ، وإذ ذاك يخلو له المكان ويستأثر بكل ما يحمله له الطائر الكبير من الغذاء .

٩ — <u>غريزة الادخار</u> : تبدو مظاهر هذا الاستعداد الفطرى لدى الطفل الإنسانى فى الثالثة من عمره ، فتراه فى تلك السن مولعاً بجمع كل ما تصل إليه يده من صغير الهنات : قصاصات ورق ، طوابع بريد

مستعملة ، تذاكر « ترام » ، مسامير قديمة ، قطع من الحصى والصدف والأحجار ، والخشب ، والفحم ، و« الفلين » ، حشرات ميتة ، أنسجة مختلفة الألوان . . . وما إلى ذلك من الأشياء التى لا سعادة للطفل حينئذ إلا فى كبر حجمها وزيادة كميتها . وتقوى هذه الغريزة لديه بين السادسة والثامنة ، وتبلغ شأواً كبيراً بين العاشرة والرابعة عشرة ، وتلازم الانسان طول حياته مع اختلاف فى نوع الأشياء التى يولع بجمعها بحسب اختلاف السن والمهنة والبيئة التى يعيش فيها .

هذا ، ويشترك مع الإنسان فى هذه الغريزة طائفة من الحيوانات نجتزئ بأن نذكر لك منها مايلى : —

ا — النمل : الذى يجمع فى أجحاره فى بعض فصول السنة ما يحتاج إليه من الغذاء فى الفصول الأخرى .

ب — النحل : التى تدخر طوائف عمالها فى أقراصها فى أثناء الفصول التى تكثر فيها الأزهار (من الأزهار التى تتغذى بها النحل يتكون إفرازها العسلى والشمعى) ماستحتاج إليه الخلية من العسل لغذاء كبارها وصغارها فى الفصول الأخرى .

حـ — السنجاب : الذى يحفر فى الأشجار عدة ثقوب يدخر فيها فى أثناء فصل الصيف ما سيحتاج إليه فى فصل الشتاء من الغذاء (يتكون غذاؤه من الحبوب والفواكه اليابسة كالبندق واللوز . . .) .

ء — البجعة ، التى تدخر بقربتها المتصلة بالشق الأسفل من منقارها ماعسى أن تحتاج إليه من السمك لغذائها وغذاء أفراخها .

هـ — الاكسيلوكوب Xylocope (وهى فصيلة من النحل تعيش أفرادها منفردة لا فى جماعات) التى عندما تشعر أنثاها بدنو وضع بيضها تعمد إلى خشبة يابسة فتحفر فيها ثقبا مستعرضا واسعا (وهذه العملية

ترجع إلى الغريزة الحادية عشرة) وتدخر فى جزء منه كمية من الأزهار التى تتغذى منها صغار فصيلتها (وهذه العملية وحدها هى التى تهمنا هنا لأنها مظهر من مظاهر غريزة الادخار التى نحن بصدد الكلام فيها) وتضع على هذه الأزهار بيضة من بيضها ، ثم تصب على الدقيق الذى أخرجته من الخشبة فى أثناء ثقبها لها كمية من السائل الذى تفرزه وتؤلف منهما عجينة تبنى بها كرة رقيقة جوفاء تحيط بالبيضة وبما تحتها من الأزهار (وهذه العملية ترجع إلى الغريزة الثانية عشرة) وتكرر هذه العمليات نفسها مع كل بيضة من بيضاتها الثلاثة ، ثم تغادر الثقب لاتلوى على شىء مما فيه ، ولا تعيش بعد ذلك عادة إلا لحظات يسيرة . فاذا ما خرج صغارها من بيضها وجد كل منها فى حجرته كمية من الأزهار الصالحة لغذائه يقتات منها حتى يبلغ أشده فيثقب الكرة المحيطة به وينسل منها إلى حيث الكدح للحياة — هذا ، ويرجع الفضل فى تفصيل أعمال هذه الحشرة إلى الأستاذ ميلن ادوارد Milne Edward .

و — بعض أنواع الذباب والثعالب والهرر . . . التى تدخر ما يزيد عن حاجتها من اللحوم بأن تحفر حفرة وتضع الزائد فيها ثم تغطيه بالتراب وتظهر هذه الغريزة لدى بعض أنواع الكلاب عند بلوغها سناً معينة ولكنها لاتمكث لديها طويلا .

ولا يخفى أن غريزة الادخار متصلة فى جميع مظاهرها اتصالا وثيقاً بغريزتى طلب الغذاء والأبوة (انظر ١ ، ٤) .

١٠ — غريزة تعطية البراز بالتراب : وتوجد لدى كثير من الحيوانات المتوحشة ولدى بعض الحيوانات المستأنسة كالهر .

ويظهر أن لهذه الغريزة اتصالا وثيقاً بمظهر من مظاهر غريزة الادخار وهو وضع الزائد من الطعام فى حفرة وردمه بالتراب (انظر غريزة ٩

رقم و) — وهذا المظهر الادخارى لا يزال باقيا كما هو عند كثير من الفصائل التى تحفر لبرازها وتغطيه ، وقد انقرض عند بعضها تحت تأثير أسباب خاصة وبقيت لديها من أنقاضه الغريزة التى نحن بصدد الكلام عنها .

١١ — غريزة حفر الأجحار : وقد زودت بها طائفة كبيرة من الحيوانات والحشرات . وتختلف مظاهرها لديها اختلافاً كبيراً ، فمنها ما يتخذ الأجحار مساكن يأوى إليها ويضع فيها بيضه ويربى فيها صغاره ويدخر فيها مازاد عن حاجته ، ومنها ما يتخذها لبعض هذه الأغراض ، ومنها مالا يعمد إلى حفرها إلا لغرض واحد منها . . . ؛ كما أن الأجحار تختلف فى أشكالها باختلاف الفصائل ، فمنها ما هو عمودى على سطح الأرض ... ومنها ما يمثل خطاً منكسراً أو منحنيا ، ومنها ذو الباب الواحد ومنها ذو البابين أو الأبواب ، ومنها البسيط ومنها المؤلف من غرف منفصل بعضها عن بعض يستخدم الحيوان كل منها فى مرفق معين من مرافقه . . . ؛ وتختلف كذلك فى الموضع الذى تحفر فيه : فمن الحيوانات مايحفرها فى الأحجار ومنها مايحفرها فى الرمل ومنها مايحفرها فى الأرض الصلبة ومنها مايحفرها فى الأشجار ومنها مايحفرها فى الخشب الجاف . . . وهلم جرا .

وهذه الغريزة متصلة فى كثير من مظاهرها بغرائز الغذاء والأبوة والادخار (انظر ١ ، ٤ ، ٩) .

١٣ — غريزة المعمار : وتوجد لدى طائفة من الحيوانات والحشرات نجتزئ بأن نذكر لك منها مايلى : —

١ — النحل التى زودت طوائف عماله بغريزة معمارية تستطيع بفضلها أن تبنى من الشمع الذى تفرزه أقراصاً مكونة بشكل هندسى دقيق يسمح

لها أن تدخر فيها أكبر كمية ممكنة من الشمع فى بنائها (هذا ، وللأقراص وظيفة أخرى ففيها تضع اليعسوب بيضها) .

ب — الكاستور Les Castors كما يسميه الفرنجة أو كلب البحر كما تسميه العامة ، وهو حيوان برى مائى من فصيلة القوارض يقطن أوربا وأمريكا وتعيش أفراده جماعات ، تحملها غريزتها التى نحن بصدد الكلام عنها على أن تسطو ليلا على بعض الأشجار الصغيرة فى الغابات فتقرضها وتنقل أجزاءها إلى نهر أو نهير حيث تستخدمها فى تقوية السدود التى تقيمها على مجراه والتى تبنى عليها بالطين لسكناها عدة غرف ومنازل يتكون من مجموعها ما يشبه القرى الإنسانية . وكثيراً ما نجم عن عملها هذا تحويل المجرى الأصلى للنهر أو النهير المقامة فيه قراها كما حدث فى كثير من نهيرات أمريكا .

وهذه الغريزة ، كالتى قبلها ، متصلة بغرائز الغذاء والأبوة والادخار (أنظر ١ ، ٤ ، ٩) .

١٣ — غريزة الجراحة : وتوجدلدىطائفة منالحيوناتوالحشرات منها أنثى السفكس Le Cphex (نوع من فصيلة الزنابير) . وقد بلغت هذه الغريزة لديها شأواً عظيما . تحفر هذه الحشرة فى الأراضى الرملية شقاً تقيم على جوانبه عدة غرف منحوتة تضع فى كل غرفة منها بيضة (انظر غريزة ١١) ، وحينئذ تبدو لديها مظاهر غريزة الجراحة التى نحن بصدد الكلام عنها ، فتجلب إلى كل غرفة من غرفها حشرة حية من الحشرات التى تتغذى بها صغار فصيلتها (يلاحظ أن كبار السفكس لا تأكل إلا النباتات فى حين أن صغارها تعيش على لحوم الحشرات) وتجرى على هذه الحشرة عملية جراحية دقيقة تشل بها حركتها حتى لاتستطيع مغادرة

الغرفة التي وضعتها فيها ، دون أن تميتها حتى لا تتعفن فتصبح غير صالحة للغذاء . فإذا ما ظهر صغارها وجد كل منها فى غرفته حشرة حية صالحة لغذائه يقتات منهـا حتى يبلغ أشده ويغادر شقه . — وتتلخص العملية الجراحية التى تجريها على الحشرة فيما يلى : تخز الحشرة بإبرتها تسع وخزات متتالية فى مراكزها العصبية وتدق رأسها دقاً خفيفاً بين فكيها . ومن الغريب أنه قد ثبت بالتجارب أن أقل من تسع وخزات لا يكفى لشلل الحشرة ومنعها من الفرار وأن أكثر منها يقضى على حياتها ، وثبت كذلك أن وخزها فى غير المكان الذى تخزها فيه لا ينتج الغرض المقصود . ـ هذا ، ويرجع الفضل فى ملاحظة هذه الغريزة إلى الأستاذ هنرى فابر H. Fabre ولا يخفى مالهذه الغريزة من الصلة بغريزتى الأبوة والادخار (انظر ٤،٩) .

١٤ — غريزة الغزل والنسيج : وقد زودت بهـا عدة طوائف من الحشرات نذكر لك منها مايلى : —

ا — دودة الحرير التى تحملها غريزتها هذه ، عند بلوغها اليوم العاشر من عمرها الخامس على أن تتسلق فرع شجرة وتأوى فيه إلى مكان مناسب فتأخذ فى غزل خيوطها الحريرية التى تخرج سائلة من غدتين بالقرب من فمها وتتجمد بعد ذلك بتعرضها للهواء ، ثم تشرع فى جمعها ونسجها فتلفها على جسمها حتى تصير على شكل جوزة مجوفة إن تركت الحشرة فيها لم تلبث أن تتحول إلى فراش ذى أجنحة فتثقبها وتطير منها .

ب — العنكبوت التى تفرز سائلا صمغياً يتجمد بالهواء ويتحول إلى خيوط ثم تشرع فى نسج هـذه الخيوط والتأليف بينها بشكل خاص تستخدمه مسكناً وشركا تصيد به الحشرات التى يتكون منها غذاؤها . — وواضح ما لغريزة العنكبوت هذه من الاتصال الوثيق بغريزة طلب الغذاء .

« يتبع »

علوم الفلسفة

العرف الخلقى

بقلم

الدكتور على عبد الواحد وافى

الأستاذ بمدرسة دار العلوم العليا وأقسام التخصص بالأزهر

يتكون العرف الخلقى بمعناه العام من مجموعة القواعد التى يحتم اتباعها على الأمة تفسيرُها للفضيلة والرذيلة. وتنحو كل أمة فى هذا التفسير المنحى الذى ترشدها اليه قوانينها السماوية وحياتها الاقتصادية ونظمها الأسرية ودساتيرها السياسية وقوانينها القضائية وبيئتها الجغرافية (١).

ولا شك أن العرف بهذا المعنى هو أهم مقياس عملى للخير والشر إن لم يكن المقياس العملى الفذ. فهو الذى تستعين به الأمم لتقدير أعمال أفرادها من الوجهة الخلقية. فبقدر مطابقتها له أو انحرافها عنه تكون خيراً أو شراً فى نظرها. وهو الذى ترجع إليه كذلك لتحديد البواعث التى يجب أن يلبى المرء داعيها، والمقاصد التى ينبغى أن يصوب نحوها مجهوده حتى تتفق أعماله مع القواعد التى أقرتها نظمها الخلقية. وهو الذى يجرى عليه السواد الأعظم من الناس فى أحكامهم الخلقية على أعمالهم وأعمال غيرهم.

ويختلف العرف الخلقى باختلاف العصور والأمم. فما تعده أمة

---

(١) يطلق العرف بمعناه الخاص على ما تصطلح عليه الأمة من التقاليد التى لم تتعرض لها قوانينها السماوية والوضعية.

فضيلة قد تعده رذيلة أمة غيرها معاصرة لها، وما يراه شعب مباحا قد يراه شعب غيره محظوراً، وكثيراً مايختلف الحكم من الوجهة الخلقية على الشيء الواحد عند أمة ما باختلاف عصورها.

فالرق مثلا كان مباحا عند جل أمم العصور القديمة وعند كثير من أمم القرون الوسطى وصدر العصور الحديثة (١). وقد غلا بعض أمم العصور القديمة فاعتبر ضرب الرق على أفراد الشعوب المنحطة فى نظرها أشبه شيء بالواجب الخلقى. ومن هؤلاء قدماء الإغريق الذين يقول فيلسوفهم أرسطوطا ليس مترجماً عن عرفهم: « إن الطبيعة قد خلقت شعوبا للسيادة (يقصد بها الشعوب الإغريقية) وأخرى للرق (يقصد بها شعوب آسيا). وقد ميزت هذين الصنفين بصفات نفسية، فمنحت الصنف الأول التفكير والإرادة. ولم تحب الصنف الثانى إلا بالجسم والعاطفة. وما الحرب إلا وسيلة أرشدت إليها الطبيعة العالم المتمدين (الاغريق) ليتمكن بوساطتها من استعباد الشعوب المتبربرة وردها إلى الحالة التى خلقت لها. فالحرب نظام بررته قوانين الطبيعة وقواعد الخلق الصحيح ». — وبينا العبريون والإغريق والرومان كانوا يبيحون ضرب الرق على الأسير ومن فى حكمه كمن اختطفه قرصان البحر. وعلى مرتكبى بعض المحظورات المدنية كعدم الوفاء بالدين أو الجنائية كبعض أنواع السرقة والزنا والقتل والخيانة الحربية ويخولون للأب حق بيع أولاده وللحر حق بيع نفسه، إذ نرى الشريعة الاسلامية تحظر ضرب الرق على

(١) ظل نظام الرق سائداً فى المستعمرات الأوروبية بأمريكا وفى بعض ممالك افريقية وآسيا حتى أواخر القرن التاسع عشر. — ولا يزال متبعاً الآن فى ليبريا والحبشة بالرغم من محاربة حكوماتهما له، وفى جزيرة العرب وعند بعض قبائل السودان.

غير أسرى الحرب ، والتقاليد الخلقية لأمم العصور الحديثة تحظر عليها أن تسترق غير سود افريقية ، على حين أن نظام الرق على إطلاقه قد أصبح فى نظر معظم الشعوب الحالية من الأمور المحرمة قانونا ومن أشدها تعارضا مع مبادىء الحرية والإخاء والمساواة التى تعتبر الأسس الجوهرية لحياتنا الخلقية .

والسرقة التى أجمعت كل شرائع أممنا الحالية على تحريمها أيًا كان نوعها وأيًا كان مرتكبها قد أوجبها بعض مشرعى مقدونيا وإسبرطة على الشبان لاعتقادهم أنها تدربهم على الأمور اللازمة للجندى من المهارة والخفة والخدعة . . . وما إلى ذلك . — وقطع الطريق الذى يعتبره ديننا الحنيف من أشد أنواع السرقة جرما وأدعاها لزيادة العقوبة قد عده كثير من الأمم القديمة أخف وطئاً وأقل عقوبة من السرقة العادية ويعتبره كثير من الشعوب البدوية الحالية مهنة شريفة لاغبار عليها من الوجهة الخلقية .

وقتل النفس لايعتبر جريمة قضائيا وخلقيا فى نظر كثير من الأمم القديمة وكثير من الشعوب غير المتمدينة الحالية إلا إن كان المقتول من قبيلة القاتل أو من أمته ، فى حين أن العرف الخلق لكل الأمم المتمدينة الحالية يحظره على الإطلاق .

والبغاء الذى تعده نظمنا الخلقية من أكبر الموبقات كان معتبراً عند بعض الأمم ، كالأشوريين والبابليين والأثينيين وغيرهم ، زلفى يتقرب بها النساء إلى الآلهة ، وواجبا وطنيا يتحتم على كل امرأة القيام به مدة معينة فى حياتها وكانت الأشوريات والبابليات والرقيقات بأثينا وروما ترتكبنه فى الهيا كل الدينية نفسها ، ويقفن مايأتيهن من الدخل (الذى كان معظمه من الأجانب) لأعمال الخير وبخاصة لتزيين المعابد وتشييدها

والإنفاق عليها ، ولذلك اشتهر هذا البغاء فى تاريخ المدنيات باسم البغاء المقدس [١]

وعمل قوم لوط الذى تعده شرائع الأمم الحالية ونظمها الخلقية من أمهات الجرائم كان مباحا عند بعض الأمم القديمة إباحة مطلقة أو مقيدة ببعض شروط . — فما جاء بالقرآن الكريم عن قوم لوط يدل بصريح اللفظ على أن النظم الخلقية لهذه الأمة ما كانت ترى أية غضاضة فى هذه الفعلة الشنعاء وقد جرت عادة الأسرات الأرستقراطية الرومانية إذا بلغ أحد أبنائهم الحلم أن يمنحوه رقيقا أصغر منه سنا يستمتع به مدة معينة ، وكانوا يرون فى هذا واجبا خلقيا يتحتم على الآباء أن يقوموا به نحو تربية أبنائهم [٢] .

وتقديم صاحب المنزل زوجه إلى ضيفه يستمتع بها مدة إقامته لديه أو ليلة من ليالى قراه كان نظاما اجتماعيا خلقيا متبعا عند بعض الأمم السامية القديمة وغيرها . وواضح أن أمراً كهذا تعتبر نظمنا الخلقية فاعله مجردا من الدين والشرف والغيرة وأحط منزلة من الحيوان الأعجم .

وزواج الأخ بأخته المحرم فى كل الشرائع الحالية لم تكن فيه أية مخالفة للنظم الدينية والخلقيه عند قدماء المصريين وغيرهم .

وزواج المرأة بأكثر من رجل واحد ، مع إجماع الأمم الحالية على تحريمه ، كان معمولا به عند كثير من الشعوب ولا يزال متبعاً للآن فى بعض المقاطعات الصينية .

---

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع فى مؤلفى :
Contribution à une Théorie Sociologique de l'Esclavage.
بصفحتى ٣١٤ ، ٣١٥ .

(٢) انظر تفصيل هذا الموضوع فى مؤلفى الآنف الذكر صفحة ٣٠٤ .

ورقص الرجل مع امرأة أجنبية عنه واحتضانه إياها أثناء رقصهما وهى عارية اليدين والصدر لا ترى فيه أمم أوروبا وأمريكا أية غضاضة من الوجهة الخلقية . تفعل ذلك المرأة على مرأى من زوجها والبنت على مرأى من أبيها وأهلها فلا يثير عملها فى نفوسهم إلا السرور والإعجاب، مع أن عملا كهذا تحرمه شريعتنا الغراء وتنبذه تقاليدنا وأخلاقنا .

واعتداء الأب على حياة أولاده معتبر جريمة دينيا وقضائياً وخلقياً فى نظر معظم الشعوب الحاضرة ؛ على حين أن إعدام الأولاد المشوهين والضعفاء كان عند قدماء اليونان واجباً أسرياً يتحتم على الآباء ونظاماً اجتماعياً ارتضاه كثير من مشرعيهم وبخاصة ليكورغوس ، وحثت عليه طائفة من فلاسفتهم منهم أفلاطون فى كتابه «الجمهورية» وأرسطوطاليس فى كتابه « السياسة » ؛ وعلى حين أن بعض قبائل العرب قبل الإسلام وبخاصة تميم وكندة وطيء كانت تعد وأد البنات من المكرمات .

والانتحار المعدود فى نظر كثير من الأمم المتمدينة الحالية من أكبر الجرائم الدينية والخلقية كان يعتبره اليابانيون واجباً خلقياً يتحتم على الواحد منهم فى حالات خاصة (عند ما يصاب فى شرفه مثلا أو يخفق فى مشروع هام أو يحاول البرهنة على أنه مغبون الحق أو على أنه برىء من تهمة ألصقت به . . وما إلى ذلك) . وكانت طريقة الانتحار عندهم شق البطن التى يسمونها « هاراكيرى » . — وقد ظل هذا النظام متبعاً لديهم حتى أوائل القرن العشرين ولا تزال له بقايا فى عصرنا الحاضر وبخاصة فى قراهم .

وإزهاق روح أى حيوان محرم عند بعض طوائف البوذيين . فقد روى الأستاذ « شاليه » أنه زار بعض المعابد البوذية بسيلان فوجد قسسه يقطرون مشروباتهم تقطيراً فنياً دقيقا ليتأكدوا من خلوصها من

كل الكائنات الحية التى يخشون ارتكاب جريمة بابتلاعها معها . على حين أن أكل لحوم الأناسى أنفسهم مباح عند كثير من زنوج إفريقية وأمريكا وأستراليا . وقد ذكر الأستاذ «شاليه» فى تقريريه اللذين كتبهما عند زيارته للكنغو البلجيكية والكنغو الفرنسية «أن معظم شعوبها تبيح لأفرادها أكل لحم كل إنسان من غير قبيلتهم ، وأن قبائل الباهوين لا تبيح إلا لحوم أعدائهم الذين يقتلون بسيوفهم فى حرب مشروعة ، وأن التقاليد الخلقية لقبائل البيتيلاس بالكنغو البلجيكية تحتم على الأبناء أكل لحوم آبائهم أحياء عند دنو آجالهم ، وأن قبائل البندوجو تكاد تبيح أكل لحم الإنسان بلا قيد ولا شرط ... الخ » .

وقصارى القول : لا نكاد نعثر على نظام خلقى أقره العرف فى جميع العصور وعند جميع الأمم . وهكذا تصدق عبارة «مونتانى» : «إن أقبح الرذائل فى نظر أمة قد يكون واجباً فى نظر غيرها ، ومحال أن نعثر على جرم خلقى لم تعده أمة ما فضيلة أو مباحا » ؛ وعبارة « پاسكال » : « إن ثلاث درجات عرض لكافية فى قلب حقائق الأمور الخلقية ، فما هو حق شمالى جبال البرانس قد يكون باطلا جنوبها » .

فإذا علمت هذا ، وعلمت أن علماء الأخلاق يحاولون وضع نظم خلقية وتشريع قوانين للسلوك يعتقدون صلاحيتها لكل زمان ومكان ، عرفت السبب الجوهرى الذى جعلهم يرون عدم صلاحية العرف لقياس الأخلاق ، والذى دعاهم إلى اختراع تلك « المقاييس النظرية » التى ربما أتيحت لنا فرصة الكلام عنها فى عدد تال .

ولكن اعتداد الناس بهذا المقياس ، مع عدم صلاحيته فى نظر علماء الأخلاق ، له بعض الفوائد . فقد منع الناس أن يصادموا العادات الصالحة . فكم من ممتنع عن الجرائم لا لشىء إلا جرياً مع العرف . ولقد

كان لهذا المقياس أيضا فائدة كبيرة فى محاربة البدع والقضاء عليها ، فان أكبر دافع إلى هذه المحاربة يرجع إلى مخالفتها لما ألفه الناس ولما ارتضته نظمهم الاجتماعية وتقاليدهم . — على أن بعض مشرعى الاسلام لم ير غضاضة فى الاعتماد على العرف أحياناً وجعله أساساً للتشريع . ومن هؤلاء الأمام مالك الذى يعتمد فى تقرير كثير من مبادئه التشريعية على عمل أهل المدينة ، أى على عرفهم وتقاليدهم ، وقد اتفقت المذاهب الأربعة كلها على اعتبار الإجماع أصلا من أصول التشريع . وما الإجماع فى الحقيقة إلا مظهر من مظاهر العرف المتبع فى الأمم الاسلامية ، فان مجتهدى هذه الأمم ، الذين يعد إجماعا ما اتفقت عليه آراؤهم ، قلما تتفق آراؤهم على غير الأمور التى يرتضيها عرف أممهم وتسلم بها تقاليدها الاجتماعية .

على عبد الواحد وافى
ليسانسيه ودكتور فى الآداب من جامعة باريس

الآداب الأجنبية

في الأدب الإنجليزي

رسالة صَمْوِل جنْسن (١)

إلى لورد تشسْتَرْفيلْد (٢)

بقلم

مهدى علام أستاذ التربية بدار العلوم

تعريف بالرسالة :

تعد هذه الرسالة درة من درر الأدب الإنجليزى ، تتعاقب عليها الأيام فلا تزيد الناس إلا إعجاباً بها وحرصا عليها . ولعل الأفضل ألا أطريها أكثر مما فعلت ، ولعل من الخير أن أتركها تتحدث اليكم عن نفسها لتصل إلى مواضع الإعجاب من قلوبكم ، ومواطن الإقناع من عقولكم . وحسبى أن ينالنى شرف نقلها إلى لغتنا الكريمة ، وحسب « صحيفة دار العلوم » أن تكون أول مطبوع عام ينشرها بالعربية الفيحاء .

ولهذه الرسالة قصة نقصها ، إيضاحا لها ، وعونا على تذوقها :

نشأ صَمْوِل جنْسنْ فقيرا معوزا ، ولكنه كان أديبا فحلا كاتبا كان

---

(١) Samuel Johnson (١٧٠٩ — ١٧٨٤)

(٢) Lood Chesterfield (١٦٩٤ — ١٧٧٣)

قوى التعبير، حسن الديباجة، متهكما لاذعا فى تهكمه، وكان خطيبا مفوها، لبقا، لم يصرع مرة فى مساجلاته. وكان إلى ذلك واسع الاطلاع فى متن اللغة. وشرع الكاتب يؤلف «معجما» فى اللغة الإنجليزية، هو أول معجم طموح فى تلك اللغة.

وكان للعلم والأدب فى ذلك العصر حماة وأولياء من أعيان البلاد وأشرافها، فكانوا يرعون بجاههم ويساعدون بمالهم، الشعراء والكتاب والمؤلفين، على مثال ما كان فى بعض عصور الأدب العربى.

وأراد جنْسنْ أن يهدى معجمه إلى ولى من هؤلاء الأولياء، هو لورد تشِسْتَرْ فِيلْد؛ لينال بذلك عطفه ومؤازرته فى إخراج الكتاب ونشره. غير أن هذا الولى كان فى عطفه على العلماء — على مايظهر — أقرب إلى الرياء منه إلى الأخذ بنصرة العلم والأدب؛ ذلك إلى أن جنسن لم يكن، على علمه وأدبه، من رجال المجتمع الراقى. فقد كان فى أخلاقه خشونة، وفى حديثه جفاء واعتداد بالنفس، وفى محاضرته صلف وكبرياء، وفى صوته عنجهية، وفى ثيابه رثاثة تنبو عنها مجالس الخاصة.

ولقد أعلن إهداءه الكتاب إلى ذلك العظيم فنفحه ببضعة جنيهات، ولكنه — مع ذلك — لم يحسن استقباله فى قصره وبين ضيفه. لأن ذلك الشريف لم يشأ أن يرى طنافسه مرقشة بوحل لندن، ولا أن يرى حساءه وخموره تنثر يمينا وشمالا، على الحلل الفاخرة التى يرتديها ضيفانه من رجال الطبقة الراقية وسيداتها، بيد ذلك الأديب المذهول المختبل، الذى كان مفزعا فى حركاته. مقلقا بالأصوات الخشنة التى يطلقها من حنجرته، والذى كانت ثيابه تجعله شبيها بالمجدار.

ولقد ظل جنسن يزور وليه زمنا، حتى صدف عنه الخدم، وأعرضت عن استقباله الدار؛ فولى وجهه عن القصر المنيف، ولكن إلى العمل الشريف، والجهد العنيف.

وبعد سبعة أعوام قطعها جنسن فى دأب واضطلاع ، أخرج للناس معجمه العظيم . وهنا أدرك تشسترفيلد شرف إهداء هذا العمل الجليل إليه ، وأراد أن يسترد حمداً كان قد أضاعه ، وأن يشترى لسان ثناء كان قد فرط فيه ، وأن يظلل برعايته رأساً أصبح بعد احتمال وهج الشمس وهاطل المطر فى غير حاجة إلى ظلة : فكتب فى مجلة « الدنيا » [1] مقالتين يقرظ فيهما معجم جنسن . فرد عليه المؤلف بالكتاب التالى :

***

٧ فبراير سنة ١٧٥٥

مولاى !

لقد أبلغنى صاحب مجلة « الدنيا » منذ قريب أن المقالتين اللتين نشرتا تقريظاً لمعجمى هما بقلم فخامتكم . وإن فى هذا لشرفا يعجزنى عن تقبله ، كما يقعد بى عن شكره ، أننى لم أتعود قبول صنائع المعروف من العظماء .

إننى حين زرت فخامتكم — على إثر قليل من التشجيع — أسرنى ما أسر سائر البشر من سحر بيانكم ، ولم أستطع إذ ذاك أن أفطم نفسى عن الأمل فى أن أفتخر بأنى أصبحت لا يعصى لى الدهر أمرا . وبأننى قد أنال تلك الرعاية التى رأيت الدنيا تقتتل فى سبيل الحصول عليها . ولكننى ألفيت زياراتى لا تقابل إلا بترحاب الزاهدين فيها . فلا الكرامة ولا التواضع كانا يسمحان إذن باستمرارها . إننى حين خاطبت فخامتكم ذات مرة على مسمع من الجمهور ، قد استنفدت كل مايعرفه من أدب الخطاب أستاذ معتكف غير خبير بآداب العظماء ، ولكن ليس فى الدنيا من يرضى بأن يكافأ على جهده بالتغاضى . مهما يكن ذلك الجهد ضئيلا .

سبعة أعوام ، يا مولاى ، قد تولت منذ اليوم الذى كنت أنتظر فيه

---

(١) The World

فى دهليز داركم ،أو أنحى فيه عن عتباتكم ، وأنا فى خلال ذلك الزمن أدفع بعملى فوق أشواك الصعوبات التى لا أرى فائدة فى الشكوى منها . وهأنذا قد وصلت آخر الأمر بكتابى إلى حافة النشر ،من غير يد مساعدة، ولا كلمة تشجيع ، ولا ابتسامة صنيع ألا إنى لم أترقب مثل تلك المعاملة لأنى لم أستظل فى حياتى برعاية ولى .

لقد قدر آخر الأمر لراعى الغنم ، فى فرجل ، أن يعرف الحب ، ووجده من سكان الصخور (١) .

أليس ولى النعمة ، يامولاى ، هو ذلك الذى ينظر بغير اكتراث إلى رجل يصارع المياه طلباً للنجاة من الغرق ، فاذا ماشارف الشاطىء عاقه بتقديم يد المساعدة إليه ؟ إن هذه الرعاية التى تفضلت بها على عملى لو كانت مبكرة لكانت طيبة ، ولكنها قد تأخرت حتى أصبحت لاأبالها ، ولاأستطيع أن أستمتع بها . قد تأخرت حتى أصبحت منعزلا ، ولاأستطيع أن أعلنها . قد تأخرت حتى أصبحت معروفا ، وفى غير حاجة إليها . وعسى ألا يكون من نكران الجميل ألا أعترف بيد لم ينلنى خيرها ، أو ألا أعلن للناس أننى مدين لذى جاه بما أقدرتنى عناية الله على النهوض به وحدى .

أما وقد وصلت بعملى إلى هذه المرحلة ، غير مستمد عوناً من رعاة العلم وأوليائه إلا القليل القليل ، فلن أيأس من إتمامه بأقل مما نلت من عونهم — إن كان فى الامكان عون أقل مما منحونى ، فاننى قد استيقظت ، منذ زمن طويل ، من حلم الأمل الذى كنت به معتزاً فخورا .

مولاى

من خادمكم المطيع

صمول جنسن

وبعد هذا أعلنت هذه الرسالة انتصار دولة الأدب على دولة المال ،

(١) الاشارة هنا إلى حادثة فى رواية لاتينية .

وحاجة ذوى الجاه إلى شرف العلم ، وحققت صدق الحكمة العربية القائلة « فكم من راغب قد كان مرغوبا إليه ، وطالب اصبح مطلوبا ماالديه . »

أما تهكمها فانه يتحدث عن نفسه : عف نزيه ، ولكنه مر لاذع ، فيه عظمة وكبرياء ، ولكنه يحمل فيهما حق الجزاء .

ولقد اشتهرت عبارات هذا الكتاب بين كتاب الإنجليز حتى إن أعظمهم غير مدافع ، وأقدرهم بدون استثناء « بِرْنَرْد شُو » ، قد اقتبس إحدى عبارات جنسن . ففى ليلة من ليالى نوفمبر سنه ١٩٢٦ كنا نستمع إليه فى لندن يحاضرنا فى « الدولية المثقفة » وكنا قد اطلعنا فى الصحف فى صبيحة ذلك المساء ، على أن برنرد شو قد منح جائزة نوبل ، وأنه ردها . فقبل أن يبدأ محاضرته طلبنا إليه أن يكلمنا عن سر رفضه جائزة نوبل : فألقى كلمة بليغة قال فيها إنه يستمتع بشهرة أكثر مما تحتمل صحته . وإنه يرى أن جائزة نوبل إنما شرعت تشجيعا للعلماء والأدباء الناهضين ؛ أما هو فانه يرى نفسه قد جاوز هذا الحد ؛ وأن هذه الجائزة في طريقه الآن بمثابة الحبل الذى يعوقه وقد بلغ الشاطئ . ومهما كانت حاجته إلى هذه الجائزة حينما كان يصارع الحياة طلبا للنجاة ، فإنه لا يستطيع أن يقبلها الآن وقد استوى على قدميه .

وشبيه بهذا الكتاب فى أسلوبه كتاب حفنى ناصف بك إلى السيد توفيق البكرى حينما تغافل السيد عن حسن استقباله . ولو أننى كنت أكتب فى غير « صحيفة دار العلوم » لاقتبست ذلك الكتاب أو فقرات منه ، أما وأنا أكتب لمن هم أعلم به منى فخليق بى ألا أعتدى على مدى اطلاعهم ، وأن أكتفى بالإشارة إلى قطعة أدبية هى بعض ما يجرى على ألسنتهم ؟

مهدى علام

المكتبة العربية

التعريف بكتاب الحيوان للجاحظ

لحضرة الأستاذ محمود محمد مصطفى
خريج دار العلوم
وأستاذ الأدب العربى بكلية اللغة العربية بالازهر

للجاحظ وهو العالم الجليل والأديب البارع الذى له فى كل فن مجال وفى كل مقام مصال ، كتب تربى على المائتين وله من بينها كتاب هو أدلها على فضله وأجمعها لمتنوع علمه . ذلك هو كتاب الحيوان وهو أكبر كتبه حجما يقع فى سبعة أجزاء ويشتمل على نحو ألف صفحة من القطع الكبير وهو مطبوع بمصر قام بالانفاق عليه الحاج محمد الساسى المغربى التاجر بمصر

ومما جاء فى أوله مما يشبه التعريف به والدلالة على مافيه قول الجاحظ

« وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم وتتشابه فيه رغبة العرب والعجم لأنه وإن كان عربياً أعرابياً ، وإسلامياً جماعيا ، فقد أخذ من طرف السياسة وجمع معرفة السماع ، وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحس وإحساس الغريزة . ويشتهيه الفتيان كما يشتهيه الشيوخ ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك . ويشتهيه اللاعب كما يشتهيه المجد ذو الحزم ، ويشتهيه الغُفْل كما يشتهيه الأديب ، ويشتهيه الغبى كما يشتهيه الفطن »

بدأ الجاحظ كتابه بمقدمة استغرقت طِلْع خمسين صفحة ذكر فيها

بعضاً من مؤلفاته وأنحى باللوم على العائبين لكتبه . ثم قسم العالم بما فيه من أجسام إلى جامد ونام . وجعل النامى النبات والحيوان . ثم ذكر أقسام البيان ثم استطرد إلى مدح الكتب فأطال فى ذلك وأعاد وأبدى ، ثم تناول موضوع الخط ومقدار الحاجة إليه ، ثم خرج إلى الشعر قبل الإسلام ، ثم أعاد القول فى شأن الكتب والترغيب فى اصطناعها . ثم ذكر ما يعترى الانسان عند الخصاء ثم سرد طرق خصاء البهائم ثم ذكر الخصى من بنى آدم وأنه أطول عمراً من الفحل ، ثم تناول الموضوع من الناحية الشرعية ثم رجع إلى القول فى محاسن الخصى ومساويه .

ولا تظن أنه حين تناول البحث العلمى فى كتابه بذكر الخصاء كف عن الاستطراد ! ! فهذا مالا يتصور فى الجاحظ . فهو غير معفيك من مثل يشرحه أو حكمة ينسبها إلى قائلها أو كلمة يرويها عن صاحبها أو آية يستدل بها على مايقول . وقد يستطرد من ذكر آية إلى أقوال المفسرين فى القرآن فيقول

« كان أبو إسحق يقول لاتسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا فى كل مسألة فان كثيراً منهم يقول بغير رواية وعلى غير أساس ، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم ، فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم وقد قالوا فى قوله تعالى « وأن المساجد لله » ليست المساجد التى نصلى فيها بل هى الجباه والأيدى والأرجل وكل مايقع على الأرض عند سجودنا : وقالوا فى قوله تعالى « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت » إنه ليس يعنى الجمال والنوق وإنما عنى السحاب . وقالوا فى قوله تعالى « ويل للمطففين » الويل واد فى جهنم ثم قعدوا يصفون ذلك الوادى . ومعنى الويل فى كلام العرب معروف . وقالوا أخطأ من قرأ قوله تعالى (عينا فيها تسمى سلسبيلا) فوصل بعض هذه

بعض هذه الكلمة ببعض وإنما هى سل سبيلا إليها يا محمد . فأن كان كما قالوا فأين معنى تسمى ؟ ! !

وقد قصر الجزأين الأول والثانى على الكلام عن الكلب والديك وعقد موازنات ومفاضلات بينهما فجعل للكلب صاحباً يحتج له ويذكر محاسنه فيرد عليه صاحب الديك بمثل ما فعل وهكذا دواليك . ولعل ذلك الأسلوب كان متبعاً عندهم تختبر به قوة الحجة وشدة العارضة ، وبين ثبت كتبه تجد كتباً متناقضة فكتاب فى « ذم النبيذ » وآخر فى مدحه وكتاب فى « ذم الكتاب » وغيره فى مدحهم وسنورد عليك بعض هذا الجدال .

قال صاحب الديك وذكر الكلب فقال : من لؤمه أنه إذا أسمنته أكلك وإن أجعته أنكرك ، ومن لؤمه اتباعه لمن أهانه ، وإلفه لمن أجاعه لأنه أجهل من أن يأنس بما يؤنس به وأشره ، وأنهم وأحرص ، وألجمن أن يذهب بمطمعه مايذهب بمطامع السباع . ومن جهله أيضاً أنا لم نجده يحرس المحسنين إليه بنباحه وأربابه الذين ربوه وواسوه إلا كحراسته لمن عرفه ساعة واحدة بل لمن أذله وأجاعه وأعطشه بل ليس ذلك منه حراسة وإنما هو فيه من فضل البذاءة أو الفحش وشدة التحرش والتسرع وقد قال الشاعر :

إذا تخازرت وما بى من خزر ثم كسرت العين من غير عور
أبذا إذا بوذيت من كاب ذكر أسود فراع تعوى فى السحر

وإنما ذلك شكل من الجبن الذى يعترى نساء السفلة من الصخب ، والكلب جبان وفيه جرأة ولؤم ، ولو كان شجاعاً وفيه بعض التهيب كان أمثل . . .
وهو مع ذلك أسمج الخلق صوتاً وأحمق الخلق يقظة ونوماً ، ينام النهار

كله على نفس الجادة وعلى مدق الحوافر ، وفى كل سوق وملتقى طريق ، وعلى سبيل الحمولة ، وقد سهر الليل كله بالصياح والصخب والنصب والتعب والغيظ والغضب ، وبالمجئ والذهاب ، فيركبه النوم على حسب حاجته إليه ، فإن وطئته دابة فأسوأ الخلق جزعا ، وألأمه لؤما ، وأكثره نباحا وعواء . فإن سلم ولم تطأه دابة ولا إنسان فليست تتم له السلامة لأنه فى كل حال متوقع للبلية ، ومتوقع البلية فى بلية . وقد كانت الطرق الخالية له مُعَرّضة ، وأصول الحيطان له مباحة

وبعد فإن كل خلق فارق أخلاق الناس فأنه مذموم ، والناس ينامون بالليل الذى جعله الله تعالى سكناً ، وينتشرون بالنهار الذى جعله الله تعالى للحاجات مسرحا

قال صاحب الكلب : لو شئنا أن نقول إن سهره خصلة ملوكية لقلنا ، ولو كان خلاف ذلك ألذ لكانت الملوك به أولى . وأما الذى أشرتم إليه من النوم فى الطرق الخالية وعبتموه به من نومه على شارعات الطرق والسكك العامرة ، وفى الأسواق الجامعة فكل امرئ أعلم . ولولا أن الكلب يعلم ما يلقى من الأحداث والسفهاء وصبيان الكتاب من رض عظامه بألواحهم إذا وجدوه نائما فى طريق خال . وليس بحضرته رجال يُهابون ومشيخة يَرحمون ويَزجرون السفهاء وأن ذلك لا يعذبه فى مجامع الأسواق لقل خلافه عليك ، ولما رقد فى الأسواق ، وعلى أن هذا الخلق إنما يعترى كلاب الحراس وهى التى فى الأسواق مأواها ومنازلها .

ثم يبدأ الجزء الثالث بذكر الحمام فيقول : باب ذكر الحمام وما أودعها الله عز وجل من ضروب المعرفة ومن الخصال المحمودة لنعرف بذلك حكمة الصانع وإتقانه وصنعة المدبر . وإن كنا قد أمللناك بالجد . ثم يستمر فى الاعتذار عن خلط جده بالهزل فيقول « على أنى قد عزمت

والله الموفق أنى أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث . ليخرج قارىء هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإنى رأيت الأسماع تمل الألحان المطربة ، والأصوات الحسنة ، والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أورثت الغفلة . وإن كانت الأوائل قد سارت فى صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح ، وما غايتنا إلا أن تستفيدوا خيرا . وقال أبو الدرداء « إنى لأجم نفسى ببعض الباطل كراهة أن أحمل عليها من الحق ما يملها » ثم يروى جملة فكاهات تضحك (كما يقول) كل ثكلان وإن تشدد ، وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب فيقول : حدثنى المدائنى قال تحول أبو عبد الله الكوفى اللحيانى الى الحربية فادعى أنه فقيه وظن أن ذلك يجوز لمكان لحيته وسمته ، وألقى على بابه البوارى (١) وجلس إليه الجيران فأتاه رجل فقال ياأبا عبد الله : رجل أدخل إصبعه فى أنفه فخرج عليها شىء من الدم فأى شىء يصنع ؟ قال يحتجم . قال الرجل قعدت طبيبا أم فقيها ؟ ! !

وقال حدثنى أبو الجهجاه قال ادعى شيخ عندنا أنه من كندة قبل أن ينظر فى شىء من نسب كندة فقلت له يوما وهو عندى ممن أنت يافلان ؟ قال من كندة قلت من أيهم أنت ؟ قال : ليس هذا موضع الكلام عافاك الله .

وقال أخبرنى محمد بن سليمان قال قال رجل من أهل الكوفة لرجل من أهل المدينة نحن أشد حبا لرسول الله منكم يأهل المدينة ، قال المدنى فما بلغ من حبك لرسول الله قال وددت أنى وقيته يوم احد ولم يكن وقع عليه شىء مما حل به ، قال المدنى أفعندك غير هذا ! قال وما يكون غير هذا

(١) الحصر والمفرد بارية

قال : وددت أنا أن أبا طالب كان آمن فسر به النبي وأني كافر . وجعل يروى من مثل هذا ونحوه ثماني صفحات ، ثم استطرد بقوله وسنذكر من نوادر الشعر جملة فإن نشطت لحفظها فإنها من أشعار المذاكرة . واستمر يروى من الشعر وطالت الرواية حتى لقد عقد في هذا الاستطراد أبوابا باب صدق النطق وجودة الفرسة وباب المديح بالجمال وغيره ، ثم إنه بعد نحو خمسين ورقة عاد إلى موضوع الحمام. وأظنك أيها القارىء الكريم قد لمست جانب الاستطراد في تأليف الجاحظ . وليس معنى هذا أن الاستطراد قد اعتدى على الحقائق العلمية فإنه بعد هذا الاستطراد كتب في الحمام وحده أكثر من خمسين صفحة فوصف أنواعه، وذكر طبائعه ، فلم يترك فيه قولا لقائل وفي هذا الكتاب يروى الجاحظ عن أرسطو ويسميه صاحب المنطق، ولأرسطو كتاب في الحيوان نقله ابن البطريق وقد اطلع عليه الجاحظ وعرضه على فكره الثاقب وبصيرته النقادة . فلم يكن يخضع لقول أرسطو ويخدع بكونه فيلسوف اليونان الأشهر، بل قد ناقشه في عدة مواضع من الكتب زيف بها آراءه فقد روى رأيه في أن إناث العصافير أطول أعماراً من ذكورها التي لا تعيش إلا سنة واحدة . فقال « والذين زعموا أن البغل إنما طال عمره لقلة السفاد والعصفور إنما قصر عمره لكثرة السفاد وغلمته ، لو قالوا بذلك على جهة الظن والتقريب لم يلمهم أحد من العلماء ، والأمور المقربة غير الأمور الموجبة . فينبغي أن يعرفوا فضل ما بين الواجب والمقرب وفرق ما بين الدليل وشبه الدليل » ثم رد على من ادعى أن البلبل لا يستقر أبدا. فقال « وزعموا أن البلبل لا يستقر أبدا وهذا غلط لأن البلبل إنما يقلق لأنه محصور في قفص، والذين عاينوا البلابل والعصافير في غير أوكارها وغير محصورة في الأقفاص يعلمون فضل العصفور على البلبل في الحركة »

وانظر إلى كلامه عن الحيات يهاجم المزاعم الكاذبة والخرافات

الهائلة فى بعض أنواع الحيات قال « والأعراب تقول فى الأمثلة قولا عجيبا ، تزعم أن الحية يقال لها الأصلة لا تمر بشىء إلا احترق مع تهاويل كثيرة وأحاديث شنيعة وتزعم الفرس أن الأجدهانى أعظم من البعير ، وأنها لها سبعة رءوس وربما لقيت أناسا فتبتلع من جهة كل فم ورأس إنساناً، وهو من أحاديث الباعة والعجائز .

وقد زعم صاحب المنطق أنه قد ظهر حية لها رأسان فسألت أعرابيا عن ذلك فزعم أن ذلك حق ، فقلت فمن أى جهة الرأسين تسعى ومن أيهما تا كل فقال : أما السعى فلا سعى ولكنها تسعى إلى حاجتها بالتقلب كما تتقلب الصبيان على الرمل ، وأما الأكل فانها تتعشى بفم وتتغذى بفم ، وأما العض فانها تعض برأسيها معاً . فاذا به أكذب البرية . والكتاب وإن كان علمياً كثير القول فانه مع ذلك جميل العبارة بارع الوصف فيه قطع كأنها قطع الرياض كسين زهرا ، منها وصفه للكتاب الذى جعله فى المقدمة الطويلة التى سبقت أبوابه ولولا الاطالة وشهرة هذه القطعة لنقلنا منها بعضاً ، ولكنى سأنقل قطعة لعلها خفيت فى غضون الكتاب فلم تشتهر شهرة تلك ، قال فى باب « القول فى الحيات » « اللهم جنبنا التكلف وأعذنا من الخطل واحمنا من العجب بما يكون منا والثقة بما عندنا ، واجعلنا من المحسنين . حدثنا أبو جعفر المكفوف النحوى العنبرى وأخوه روح الكاتب ورجال من بنى العنبر ، أن عندهم فى رمال بلعنبر حية تصيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيد . زعموا أنها إذا انتصف النهار واشتد الحر فى رمال بلعنبر وامتنعت الأرض على الحافى والمنتعل ورمض الجندب غمست هذه الحية ذنبها فى الرمل ثم انتصبت كأنها رمح مركوز أو عود ثابت، فيجىء الطائر الصغير أو الجرادة فاذا رأى عوداً قائما وكره الوقوع على الرمل لشدة حره وقع على رأس الحية

على أنها عود ، فاذا وقع على رأسها قبضت عليه ، فإن كان جرادة أو جُعَلا أو بعض مالا يشبعها مثله ابتلعته وبقيت على انتصابها ، وإن كان الواقع على رأسها طائراً يشبعها مثله أكلته وانصرفت ، وإن ذلك دأبها مامنع الرمل جانبه فى الصيف والقيظ فى انتصاف النهار والهاجرة . وذلك أن الطائر لا يشك أن الحية عود وأنه سيقوم له مقام الجذل للحرباء إلى أن يسكن الحر ووهج الرمل . وفى هذا الحديث من العجب أن تكون هذه الحية تهتدى لمثل هذه الحيلة ، وفيه جهل الطائر بفرق مابين الحيوان والعود وفيه قلة اكتراث الحية بالرمل الذى عاد كالجمر وصلح أن يكون ملة وموضعا للخبزة ، ثم يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار والرمل على هذه الصفة ، فهذه أعجوبة من أعاجب مافى الحيات

والكتاب كله على هذا النمط نقل عن صاحب المنطق واستنباط من كلام العرب ، واعتماد على رواياتهم ، وملاحظة دقيقة ، واختبار ذاتى واستطراد إلى مثل ماعرفت . فكل هذا جعل الكتاب موسوعة علمية أدبية عديمة النظير .

ديوان عبد المطلب

بقـــلم

مهدى علام

استاذ التربية بدار العلوم

مقدمة :

كان عبد المطلب رجلا بدويا بفطرته ، حضرياً ببيئته . وقد اعتورته تلك البداوة وهذه الحضارة . وتنازعتاه زمنا ، كل منهما تريد أن تستأثر به لنفسها ، وتخضعه لسلطانها ؛ ولـكن عبد المطلب فى قوته وصلابته قد أخضعهما جميعا لحياته ، فلاءم بينهما ملاءمة ، وأخرج منهما مزيجا امتاز به على سائر لداته : فكان البدوى الحضرى فى مأكله ومشربه ، وملبسه ، ومسكنه ، ومركبه ؛ ثم ظهر أثر ذلك كله فى شعره . فكان بذلك مدرسة مستقلة فى الأدب العربى - مستقلة عن الشعر العصرى لأن صدى البادية يتردد فى أنحاء شعره فى الخيال والمعنى واللفظ ، ومستقلة عن الشعر العريق لأن صور المدنية فى شيخوخة القرن التاسع عشر والثلث الاول من القرن العشرين قد انعكست على مرآة شعره ، وإن سترها فى بعض الأحيان أسلوبه البدوى .

لقـد أكل عبـد المطلب متربعا على سماط البادية ، كما جلس إلى مائدة المدينة ، فجعل من ذلك كله صورة بين هذه وتلك هى التى وصفها إذ يقول (ص ٩٢)

ولو ترى ، إذ ترى ، طعام العـــشاء تجرى به الجوارى

من كل رومية كعاب شفافة الثوب والإزار
يمشين حول الخوان رهوا مشى المعنَّى من الإسار
فتلك فى كفها حَنيذ على إناء من النضار
وتلك من خلفها بصحن عليه حوت من البَهار
وتلك من خلفهن عجلى تحمل شيئا من الثمار
وكم وكم ثَم من صنوف فى العد جلت عن انحصار!

أليست هذه المائدة التى يصفها عبد المطلب مائدة بدوية تخطو متئدة نحو المدنية؟ لم ينس عبد المطلب «الحنيذ» ولكنه وضعه على إناء من النضار، وذكر الفاكهة — وهى للبدوى ترف يدل عليه اشتقاق لفظها — ولكنه لم يسرف بل كان قانعا «بشىء من الثمار». ثم هو يصف لنا جوارى المائدة حتى ليكاد ينقلنا إلى فندق من فنادق لندن أو باريس.

ولقد كان عبد المطلب يتزيا بالثياب العربية، وكان بها مشغوفا فخورا، وعليها محافظا حريصا، ولكنه لم يغلق عينيه عن مستحدثات الحضارة فى ذلك الزى، فقد ارتدى «الدثار» كما ارتدى «الجبة» على حين أن بعض أشياخنا من لداته وزملائه مابرحوا يحافظون على جبابهم وعباءاتهم حتى اليوم، فكان بذلك وفيا لمذهبه فى الجمع بين القديم والجديد، وكلنا يذكر دثاره العريق الذى جمع فيه بين التفصيل الحديث، والصوف البلدى الذهبى اللون، الذى يذكرنا بقول الشاعر البدوى:

حيكت على نيرين إذ تحاك تختبط الشواك ولاتشاك

وكأنما عبر عبد المطلب عن حالته هذه فى الحرص على القديم مع اقتباس الجديد بقوله ينعى على أدعياء الأدب إذ يدعون إلى اطراح القديم (ص ٢١٩):

مازوا الجديد من القديم. وما دروا أن الجديد من القديم سليل
... ...

مافى القديم معابة إن لم يكن فيه عن السنن السوى عدول
وذر الجديد إذا رأيت سبيله عوجا عن الحق المبين تميل

وبقوله يتحدث عن اللغة العربية (ص ٢٢١)

من لم يحط بقديمها لم يعتقد علما بمجد الشرق، وهو أثيل
وخذى المعانى فى جمال جديدها ماشئت لاحرج ولا تخذيل

ولقد رأينا عبد المطلب فى مسكنه يخضع كذلك لمذهبه فى الجمع بين القديم والجديد، فقد سكن قلب القاهرة حقبة طويله من الزمن، ثم انتقل إلى « مصر الجديدة » فى أعوامه الأخيرة. ولعل من أول الدلائل على عدم اندفاعه وراء الجديد، وإبقائه على القديم أنه كان، وهو يقيم فى تلك الضاحية الجميلة، يحمل معه من القاهرة فى سيارته كل يوم مايحتاج إليه من الماء، لأن ماء « مصر الجديدة » لم يلق لديه قبولا. فكم مرة ركبت معه وأمامنا صفائح الماء وزجاجاته استبدالها بالمزاود والقرب، كما استبدل فى حملها بالابل السيارة! تلك لعمرى صورة عجيبة حقا، ولكنها صادقة صدقا، فى تصوير عبد المطلب ونزعاته الشعرية.

ولم تكن تلك السيارة أولى مطاياه، فقد كان عبد المطلب فى مركبه وفيا لنظريته، فقد بدأ حياته يمتطى حماراً، حماراً سعيدا.

لوأراد الاله فى البهم رسلا كان فى أمة الحمير نبيا

فقد كان يركبه إلى دار العلوم، وهناك فى شارع المنيرة يربط الحمار إلى شجرة من أشجار الشارع أمام المدرسة حتى ينتهى الشيخ من محاضرته فيمتطيه ويقفل راجعا. بل إن عبد المطلب كان يركب العيس فى ريف مصر، العيس التى لم ينسها، أو كان لاينساها، فى قصيدة من قصائده. ولكن الشيخ لم يغفل عن مطايا المدنية الحديثة، ولم يغض من شأنها، ولم يفضل عليها الابل، بل أشاد بذكرها فى شعره، وركب متنها فى حياته. فلقد

استبدل الشيخ بحماره سيارة ، سيارته الأولى التى أراد أن تكون قنطرة انتقالية من ذوات الحوافر الأربع ، إلى ذوات العجلات الأربع . وبذلك كان وفيا مرة أخرى لمذهبه فى الجمع بين القديم والجديد ، فلم يظفر بالانتقال من ظهر حماره إلى مقعد وثير فى سيارة فخمة ، بل تخذ تلك السيارة «الانتقالية» حقبة جرب فيها الجديد حتى أنس به واقتنع بصلاحيته ثم هجرها إلى سيارة فخمة لازمها حتى يومه الأخير . ولقد ظهر ذلك كله فى شعره . فوصف السيارة والقطار البخارى ، والطيارة والكهرباء الخ. استمع إليه حين يودع صديقه الأستاذ الشيخ عبد الرحمن قراعه فى سنة ١٩٠٥ ، وهو زمن لم تكن السيارات فيه قد أزعجتنا أبواقها حتى تفرض نفسها على خيالنا ، قال فى صفحة ٢٩٥ :

ولم فى بطون البيد نهج إلى العلا وفوق متون الناجيات أمانى !
وما نغم الحادين إلا مثالث يغنى بها واعى العلا ومثانى
على أنها عندى زواجر لوعة تحرض أشجانى على الثوران

ثم استمع إليه يصف عيش الأغنياء (ص ٩١)

تلألأ الكهرباء فيه تلألأ الكنّس الجوارى
كأنه ، والظلام ساج من حوله ، آية النهار
ومركب كالنسيم يجرى على الثرى آمن العثار
لا خيل تعدو به ولكن حييت يادولة البخار

أو فاستمع إليه يصف جيش الدولة العثمانية وهو يهنئ السلطان عبد الحميد بعيد الدستور (ص ٩٤) :

حتى إذا طمع العدو ، ورابه سكتات ليثهما عن التزآر
سبق البخار إليهما عن أمره سبق الشهاب لمارج من نار
يطوى على عجل فيافى قَبْلَه بعدت على طيف الخيال السارى

«باء» البخار لقد علمنا أصبحت في شرعة التاريخ «فاء» فخار

ولعل أجمل وصف له في البخار قوله في وداع صديقه الشيخ عبد القادر المغربي الطرابلسي عام إعلان الدستور التركي (ص ١٣٩) :

وقلبا تولاه الأسى ، كلما هفا بمسمعه ذكر البخار تفزّعا
فياقاتل الله البخار ، كم اعتدى على شمل قوم جامع فتقطعا !
إذا ما شكا قبلي من العيش موجع شكوت قطار البرّ أدهم أسفعا
فمن سائر ينقض في البيد زائراً فتحسبه طيفاً من الجن مُفزعا
تراه ، إذا أرسلته في مفازة إلى قطعها ، من خاطر النفس أسرعا
وينقض في البيداء يعلو عجاجه كما عصفت ريح من الغرب زعزعا
كأن نجوم الليل حال ادّلاجه من الوحش سرب مقبل مدبر معا

وكما وصف عبد المطلب السيارة والقاطرة البخارية ، وصف كذلك السفينة البخارية ، والطائرة والكهرباء . ففي القصيدة السابقة ، وعقب الأبيات التي رويناها يقول واصفاً السفينة : —

وسابحة يعنو لها البحر هيبة ويمسى سحاب الجو منها مروّعا
كأن حِفافيها قوادم أربد بحيزومه نحو المجرة أتلعا
تطيح جبالُ الموج تحت لَبانها كما طاح رضوى أو ثبير تصدعا
وتلهو بمخضرّ العباب كما لهت سوامٌ بمُخْضَلّ من الروض أمرعا
ترى في رُغاء البحر في جنباتها فتى شيبت منه الحوادث قُنزُعا
تَميَّسُ بالهوج الرياح دعابة كما ماس غصن بالنسيم ترعرعا

ويقول في وصف الطائرة ، في استقباله الطائرين التركيين (ص ٩٥)

وقفت لك الدنيا فسيرى مسرى الضياء من الأثير
يا أخت سابحة النجو م ، وبنت سانحة الضمير
... ...

أفأنت وافـــدة البخا ر على الأجادل والنسور ؟
ثارت لتأخذ باسمه عهدا على ملك الطيور
ملك البخار على السما ك بصولة الملك القدير
... ...
فالنجم فى فرق يجو ل بجفن مرتاع حسير
والسحب من حذر البخا ر وبأسه حيرى المسير
... ...
أهـــلا بمعلية « الهلا ل » على الكواكب والبدور

ومن أجمل ما قاله صاحب الديوان فى وصف الطائرة مطلعاه فى العلويتين العلوية الأولى (ص ٢٦٨) والعلوية الكاملة (ص ٢٣٠) قال فى الأولى :

أصغر الأرض وما فيها مقاماً فاعتلى يضرب فى السحب الخياما
حسد الطير على الجو فسَرْ عانَ ما حلق فى الجو وحاما
يزجر الريح فتجرى تحته أينما ولى بها تلوى الزماما
سابحاً فوق ابنة النار على مسرح النجم جنوباً وشآما
فإذا شاء أسفت فى الثرى وإذا شاء بها شق الغماما
أحْوَذِيَّات إذا ما هزمت تملأ الأفق رُغاء واهتزاما
سفن فى الجو إلا أنها فى السرى تطويه كالطيف لماما
ليت شعرى أين يبغى بعد ما غَلب النسرَ عليها والحماما
يا خليلى احملانى فوقها علنى ألقى على السحب « الإماما »

وقد حوّم فى مطلع علويته الكاملة حول هـذه المعانى نفسها ، وبالألفاظ عينها إذ يقول :

أرى ابن الأرض أصغرها مقاماً فهل جعل النجوم بها مراما ؟ الخ

أما بعد فهذا منهج عبد المطلب فى شعره ، لو لم نزد عليه كلمة لكان تلخيصاً دقيقاً لمذهبه فى الشعر ، وصورة واضحة لما أودعه ديوانه . غير أننا نرى لزاماً علينا ، وإنصافاً للشيخ ، أن نلم إلماماً موجزاً ببعض الأبواب التى طرقها الشاعر ، لنبدى فيها رأينا .

الأُدب المستعار :

يصطدم قارئ هذا الديوان فى أولى خطواته بنوع من الشعر أسميه « الأدب المستعار » وهو أن يقول الشاعر على لسان غيره شعراً فى شأن من الشئون التى لا يخفق لها قلبه ، ولا تستقر فى يقينه . فثانى قصيدة يرويها لنا الديوان ، فى الصفحة الثالثة ، يقول الشاعر فى مقدمتها : « وفى سنة ١٩١٤ كان بين المرحوم اسماعيل أباظه باشا وبين ابن أخيه محمد بك سليمان أباظه جفاء ، فطلب إلىّ الباشا أن أعاتبه على لسانه فقلت » . وفى الصفحة الخامسة نرى قصيدة فى استقبال عدلى يكن باشا عند عودته من انجلتره بعد انقطاع مفاوضته سنة ١٩٢١ ولم يذكر لنا الشاعر أن هذه القصيدة من « الأدب المستعار » ولكننا نعلم أنه أريد عليها فخضع لداعى المجاملة أكثر مما خضع لواجب عقيدته . وفى ص ٦٢ يقول صاحب الديوان : « عتاب لبعض الرؤساء على لسان بعض الأصدقاء سنة ١٩٠١ » وفى ص ٨٦ يقول : على لسان حضرة على الكيلانى بك ناظر مدرسة سوهاج الأميرية ، تهنئة الأستاذ الكبير الشيخ أبى الوفاء شرقاوى بحجه وقدومه سنة ١٩٠٠ » ، وفى ص ٣١٤ يقول قصيدة « على لسان بعضهم، استعطاف لسابا باشا مدير البريد » وفى ص ٣١٥ يقول : كتبت تهنئة بمولودة اسمها عليه على لسان بعض الأصدقاء سنة ١٩٠١ »

وأنا أريد ان أقف لدى هذا الضرب من الشعر وقفة قصيرة أعلل

فيها نشأة هذا الأدب ، وأذكر فيها قيمته الفنية . إن هذا الشعر المستعار — أو على الأصح المعار — يدل ، إذ يظهر فى أمة من الأمم على أمرين: أحدهما الأميـة الشعرية ، أو فقدان الشعر من حيث هو قوة من قوى التعبير عن النفس ، وثانيهما رفعة الشعر وعلو شأوه فى تلك الجماعة . فانتشار الأميـة الشعرية فى المجتمع يدعو إلى استعارة الألسنة الناطقة ، كما يدعو انتشار الأمية الخطية إلى استعارة الأقلام الـكاتبة . على مثال ما كنا نجده — وما لانزال نجده — فى الجواسق الصغيرة المقامة على الأطورة (الأرصفة) خارج المحاكم ، وفى الصيارف ، وطلبة العلم المخفقين ، فى قرى الريف . وشعور الناس بحاجتهم إلى التعبير الشعرى عن أفكارهم — وأحياناً عن أفـكار تخلق لهم — دليل على أن للشعر منزلة رفيعة بينهم ، ولولا ذلك ما كلفوا أنفسهم ذلة الاستعارة ، وسجلوا على أنفسهم العى والحصر . هذا هو فى رأيى ، سبب حياة هذا « الأدب المستعار » الذى لا يعيش ـ عادة ـ إلا فى مجتمع لم تطغ عليه المادية طغياناً ينسيه جمال التعبير الروحى فى نغمات الشعر ، ولم يرتق مع ذلك فى الحياة الأدبية رقياً يقدر أفراده على ذلك التعبير كلا عن نفسه ، ويغنيهم عن استعارة بعضهم ألسنة بعض

أما القيمة الفنية لهذا « الشعر المستعار » فتحتاج إلى قدر من التؤدة . فأنا أعلم أن النقاد الآن يسمون هذا الشعر زائفاً كاذباً . وما فى هذا أريد أن أخالفهم ، أو بعبارة أدق : أنا أكاد لا أخالفهم فى أنه شعر كاذب زائف . ولـكن الذى أريد أن أكشف عنه هنا هو أن قدراً من الصدق قد يظهر فى ثنايا هذا الـكذب ، وشيئاً من المعدن الـكريم قد يلمع فى وسط ذلك الزيف . فكثيراً ما يكون لدى الشاعر ما يسميه العلامة فرويد « الرغبات المحتبسة » فى العقل الباطن فينتهز فرصة القول فى غرض من الأغراض المستعارة ليعبر عن تلك الرغبات فيفكها من عقالها ، ويطلقها

من محبسها . وعند ذلك نقول إن الشاعر استطاع أن يتقمص الحالة الجديدة ، كما يحدث للممثل أن ينسى شخصيته فى الدور الذى يمثله . ففى أولى قصائد « الشعر المستعار » فى ديوان عبدالمطلب نسمعه يقول ، لا عن لسان من رغب إليه ، ولكن بلسانه هو ، ومن يقينه هو :

إن الكريم إذا ما اهتاجه غضب لم يلوه عن طريق الحكمة الغضب
اللهَ فى الود والقربى ، فإن لها حقاً على الناس جاءتنا به الكتب

وفى ثانى القصيدتين ظهرت « الرغبات المحتبسة » بصورة أقوى ، فقد كان هوى عبد المطلب فى ناحية ، والمرحوم عدلى يكن فى ناحية أخرى ، وكان الخلاف بين عدلى وسعد إذ ذاك بالغاً أشده ، ولكنا مع ذلك نرى عبد المطلب قد غلبه عقله الباطن فقال :

قالوا : السلام ، فقام قائدنا يزجى إلى حلباته النجُبا
ولرب سانحة إذا عرضت صدق الكذوب وجدّ من لعبا
فدعوه إذ برموا بصاحبه ظنوه يرضى ما أخوه أبى
ظنوا وزير النيل يخلبه لمع السياسة بين من خلبا

أما ثالثة القصائد « المستعارة » فثالثة الأثافى ، فهنا لم يكن للشاعر « رغبة محتبسة » تطلب الحرية ، ولذلك جاءت القصيدة غثة بالية . أى جمال ، فى المعنى ، أو الخيال ، فيما يقول عبد المطلب ، فى ذلك العتاب الزائف :

مولاى عنى صدا وهو الحبيب المفدى
ما كنت أحسب دهرا لنا يغير عهدا
ولا يحول حالا ولا يدنس ودا
... ...
مضت ليال أرتنا عيش المودة رغدا
بالصفو كانت رياضا تفوح عطراً وندا

حال الزمان فعادت   لنا كواحل لُدا

واست أجد تعليقا على هذا النظم ، أبلغ مما قال عبد المطلب نفسه متهكما (ص ٢٢٥)

إذا وازنوا بيتا على النظم صفقوا   وما الشعر فى مستفعل وفعول

أما القصيدتان الباقيتان من شعر عبد المطلب «المستعار» فانى أرى من حرمة ذكراه ألا أقتبس منهما شيئا .

الشعر الصادق

ولئن كان عبد المطلب قد تورط ، فى أحيان قليلة ، (رأينا أنها لم تتجاوز خمس قصائد) فأعار شعره ، لقد كان عبد المطلب الشاعر الصادق والوفى الأمين . يبدو ذلك فى كل شعره ، ويبدو بصفة خاصة فى شعره لإخوانه وفى وطنه . وخير نموذج أقدمه لشعره الصادق فى الأخوة ماقاله فى الشوق لصديقه الأستاذ الشيخ عبد الرحمن قراعه ، وكانت بينهما آصرة الصداقة طاهرة قوية ، وقد عبر عنها كل منهما بشعر جيد مليح . ومن حضر حفل التأبين الذى أقيم لعبد المطلب يذكر أنه رأى شيخاً وقوراً يرأس الحفل ، قد حنت السنون ظهره ، ولكنها لم تحن قلبه ، وهزت الشيخوخة يديه ، ولكنها لم تزعزع إخلاصه . ذلك هو الشيخ قراعة الذى كتب إليه عبد المطلب ، وقد نقل الشيخ من سوهاج إلى أسوان (ص ١٢١) .

« أمر على الديار ديار ليلى »   فتسبق أدمعى حمراً غزاراً
وأذكر جيرة ظعنوا فاحنوا   « أقبل ذا الجدار وذا الجدارا »
« وما حب الديار شغفن قلبى »   فيطفىء لثمها ذاك الأوارا
ولا لثم الطلول أسال دمعى   « ولكن حب من سكن الديارا »

فأجابه الشيخ قراءة :

أقضى الوقت أجمعه ادكاراً لمن عنهم ترحلت اضطراراً
وأطفىء بالمدامع نار قلبى فتذكى أدمعى فى القلب ناراً

... ...

ليهنك أن عهدك عهد صدق وأنك خير من حفظ الذمارا
وأنك إن تمر بدار ليلى أُحادَ فقد مررت بها مراراً
أمر بخاطرى ، ومناى أنى «أقبل ذا الجدار وذا الجدارا»
«وما حب الديار شغفن قلبى» فأسمح بالدموع لها نثارا
وما همى الركون إلى الأمانى «ولكن حب من سكن الديارا»

ويستوقفنى فى قطعة الشيخ قراءة بيته الذى يقول :

وأطفىء بالمدامع نار قلبى فتذكى أدمعى فى القلب ناراً

فقد عبر الشيخ عن أحدث نظرية فى علم النفس عن نشأة الوجدان ، تلك هى نظرية «جِمْس — لَنْج» . فرأى الجمهور من علماء النفس على أن الوجدان ينشأ نفسياً ثم يبدو على أعضاء الجسم من بكاء ، أو ضحك ، أو احتقان للدم ، أو انتفاخ فى الأوداج الخ ، ورأى كل من جمس ولنج ، على عكس ذلك ، هو أن الوجدان ينشأ فى أعضاء الجسم ثم يتبعه الجيشان النفسى . وتعرف النظرية الأولى باسم «النظرية النفسية» والثانية باسم «النظرية العضويه» . وليس هنا موضع الإفاضة فى أدلة كل من النظريتين ولكننى أرى الشيخ قد أضاف دليلا إلى أدلة «النظرية العضوية» إذ يقول :

وأطفىء بالمدامع نار قلبى فتذكى أدمعى فى القلب نارا

عبد المطلب الشاعر المصرى

لقد عاش عبد المطلب فى جزيرة العرب بلسانه دائماً ، وبخياله فى كثير من الأحيان ، ولكنه عاش بقلبه فى مصر لم يبرحها فى يوم من الأيام . أليس بعض ماقال فيها قصيدته التائية (ص ٣٣) التى مطلعها :

مصر أمى ، فداء أمى حياتى . سلمت أمنا من العاديات !
يارياح الحياة فى مصر هبى روحينا بطيب ريا الحياة .
ياسماء الحياة فى مصر جودى أنفسا فوق نيلها صاديات .
ما لأم الأمصار حملها الدهـــر صنوف الآلام والموجعات ؟

وقد أنشد هذه القصيدة فى حفلة لتربية الطفل حضرها فيمن حضر خمسمائة وألف سيدة ، وأذكر أنى سمعته ليلتئذ فما سمعت أرق منه لفظا ولا أجمل أسلوبا ، ولا آخذ بمجامع القلوب . ولقد فاجأتنا يومئذ عذوبة القصيدة وسهولتها ورقتها ، فكدنا نعتقد أن عبد المطلب ، الشاعر البدوى ، لا يستطيع أن يقول مثلها . ولكن كذلك كان عبد المطلب : عربى بدوى إذا شاء ، وشاعر حضرى إذا أراد . وما أصدقه إذ يقول فى الاحتفال بالعيد « الخمسينى » لدار العلوم (ص ٢٢٠)

دان القريض لنا ، فأما روضه فجنى ، وأما صعبه فذلول
ولنا إذا شئنا جزالة جرول وإذا نرق فتوبةٌ وجميل

وما أكثر قصائده ، وما أطولها ، وما أبلغها ، تلك التى حيا فيها مليك البلاد ، ودار النيابة ، وزعماء الوطن ، وتغنى فيها بمجد مصر القديم عامة ، وبعظمة « توت عنخ آمون » خاصة ! استمع إليه حين يحى مليك النيل المعظم (ص ١٠) :

وإذا الوجوه المسفرات تدفقت بشراً على القسمات ، فهو إهاب

وإذا العيون من المهابة خشع　　وإذا القلوب من السرور طراب
وإذا المليك بدا يحيى قومه　　فتواصل التهليل والترحاب
ودعا لحيا المجلسين ، وسلموا　　عند التحية ، والدعاء جواب

أو فاستمع إليه يخاطب « توت عنخ أمون » (ص ٨) :

غاليت فى كتمان رمسك جاهداً　　كيلا تحيط بعلمه الأعقاب
ياطالما كذبت قوماً حاولوا　　أن يعلموك منقبين فخابوا !
حتى رأيت بلاد ملكك أصبحت　　بالجهل ترمى . والهوان تعاب
أدنيت رائدهم ليشهد أننا　　للملك قبل وجودهم أرباب
وأذنت للمتعرفين ، لعلما　　عرفوا لقومك حقهم فأنابوا
أتراه حين رآك قام بما قضت　　قدما به العادات والآداب ؟
ورأى جلال الموت زادك هيبة　　فجثا ، ومثلك فى الضريح يهاب
أم راح فى صلف عليك ، فلم يرم　　حتى هوى أجل به وكتاب ؟

وما أجمل مايقول بعد أبيات :

فرعون أورث « أحمد » استقلاله　　فالملك ملك ، والجناب جناب
ما إن يضير العرش أن تتغير الـ　　ـأسماء من أهليه والألقاب

ولعل فى قصيدته القافية وأبياتها ثمان ومائتان ما يقنعنا بتعلق الشاعر بوطنه وفيها يقول يعير الحلفاء بهزيمتهم فى إحدى المواقع :

كأنى بهم يوم البحيرات كبّهم　　بهاجيش« هندنبرج »من كل مزلق
جنود تروع الليلَ أنزلها الردى　　ضيوفا على الحيتان فى شر فندق

... ...　　... ... ...

هل الحرب إلا ماعلمتم وذقتمو　　وما هو عنها بالحديث المزوق

المعانى البكر

إن قيمة الشاعر تعتمد على مقدار ما استحدث من أفكار ، وما

ابتكر من معان ، إلى جانب ثروته اللفظية . فهو فى هـذا كالعالم المؤلف إن لم يزد على آراء من سبقوه كان محسوبا مع العلماء وليس منهم . ولعبد المطلب معان وأخيلة بعضها جديد وبعضها نصف جديد ، وكلها حسن جميـل . ولقد روينا بعضها فيما روينا ، ولـكننى أضن بقطعة أو قطعتين ألا تذكرا على سبيل التخصيص . فقد قال فى رثاء المرحوم الشيخ على يوسف ، وقد غاض النيل عامئذ ، فاتخذ من ذلك مادة لحسن التعليل إذ يقول (ص٦٩) :

حييت حياة الماجدين ، فإن تمت   فإنك فى طى الضمائر مخلد .
إذا جزعت «جرجا» فما كل من بكت   «على» ولا كل امرىء فاد سيد .
ألم تر أن النيـــل قاسم أهلها   حداداً ، فواديها من النبت أجرد ؟
فلولا حداد النيل فيها لما ضفا   على أرضها ثوب من المحل أسود .

وله فى رثاء المرحوم عاطف بركات باشا أبيات عيون ، فمن ذلك قوله :

يقولون : أودى ربها غير مخلف   بنين على آثارها وبنـات
رويدكم ، إن الحجا يلد الحجا   ولا عقم إلا فى نهى وحصاة
وقد ينفد المسك الذكى معقباً   سواطع من أرواحه عطرات
ومن مات من أهل العلا خلع العلا   على ملأ من قومه وسراة
ومن يفن فى نشر المعارف يحى فى   أساتذة رباهم وهـــداة
ومنـــذ الذى ربى كأبناء عاطف   أئمة هدى ، أو عدول قضـــاة ؟

ومن أقوى مطالعه قوله فى رثاء المرحوم فتحى زغلول باشا (٣٠٦)

أرى الشعر يدمى بالدموع المآقيا   كفى حزناً أن تسمع الشعر باكيا !
دعونا القوافى أن يكن تهانيا   فجئن على رغم الأمانى مراثيا .

ومن العجيب أن له قصيدة فى رثاء المرحوم سعد زغلول باشا تبلغ ستة ومائة بيت ، ولـكن لم يرقنى منها إلا بيت واحد — أو على الأصح شطر من بيت هو قوله (ص ٥٩) :

أهابوا بالزمان فروعوه   واجفلت الحوادث حين صاحوا .

منطق الشعر:

وأقل درجات المنطق ألا يناقض المرء نفسه ، ومن العيب ألا يصدر الشاعر عن فكرة واحدة فى شعره كله ، أما أن يناقض نفسه فى القصيدة الواحدة فذلك أشد عيبا . وهو خطأ شبه طبيعى عند الشعراء ولا سيما عند ما « يقولون مالا يفعلون » . وأشهد ان اخطاء عبد المطلب فى هذا الباب قليلة بل نادرة ، ولكننى لا أستطيع أن أتغافل عن مناقضته نفسه فى غزله الذى صدر به قصيدته الكافية التى يعارض فيها ابن هانىء فى قصيدته التى مطلعها

فتكات لحظك أم سيوف أبيك وكئوس خمر أم مراشف فيك ؟

قال عبد المطلب (ص ١٧٦) :

حسبوك صادقة ولو علموا بما حملتنى بالغدر ماحسبوك
أحللتنى ربعا بقلبك شركة وحللت فى قلبى بغير شريك

هـذا هو وصف الحبيبة : غادرة بعشيقها ، كاذبة فى حبها ، منافقة فى قلبها ، تكاد تكون عاهرا ؛ ولكنه بعد ثلاثة أبيات يقول فيها :

يابيضة الخدر المنيع ، أما كفى خدّيك قانى دمعى المسفوك ؟

ولقد نقبل بعد الأوصاف السابقة أى وصف إلا « بيضة الخدر » العفيفة المحجبة التى لاتتسامى الأنظار إليها . ومن الإنصاف أن نقول إن تعليل ذلك التناقص الشبيه بالطبيعى يرجع إلى أن الشاعر لايتحدث عن حبيبة حقيقية — إذن لكان يصف وصفا صادقا غير متناقض ، فهى إما غادرة منافقة ، وإما بيضة خدر محجبة — وإنما يرسل بالمعانى يستدعى بعضها بعضا استدعاء نفسيا لامنطقيا . وقد جرى الشعراء على أنهم ، إذ يعارضون « أساتذة » الشعر فى قصائدهم ، يستقصون المعانى التى تقال فى الموضوع ، وقليل منهم من يمحصها فلا يجعلها تبدو خليطا مضطربا .

عبد المطلب المعلم

لم ينس عبد المطلب أنه كان ذا رسالتين رسالة الشعر إلى الأدباء، ورسالة العلم إلى التلاميذ، وقد كان فى شعره معلما كما كان فى تعليمه شاعرا. وقد وصف المعلم والقلم فى عدة مواضع من ديوانه جاءت جميعها آية فى الصدق والبلاغة وحسبنا منها قوله (ص ١١١ ١١٢)

بنى مصر، مابال المعلم كاسفا يرى الناس فيها يكبرون ويصغر ؟
سبيل النبيين الكرام سبيله يعم بها الدنيا صلاحا فتقمر
سلوا عنه جنح الليل كم بات متعبا تنام حواليه النجوم ويسهر
سلوا عنه عينا قرح السهد جفنها يخط عليها فى الظلام ويسطر
سلوا عنه جسما بات بالسقم ناحلا فلا البرء مأمول ولا هو يعذر
سلوا عنه أسفارا قضى الليل بينها غريبا عن الدنيا وأهلوه حضر
سلوا عنه قلبابات يخفق رحمة على فتية من حوله تتضور

... ...

فيامصر إن عز الوفاء فاننا على العهد لانلوى ولا نتغير
أنخذل مصرا فى بنيها وهذه ذئاب الليالى حولها تتنمر ؟
بنوها بنونا، والمدارس دورنا لها كل ما نقنو وما نتخير
عهود كتبنا عقدها فى ضمائر على الصدق يطويها الوفاء وينشر

هذا ديوان عبد المطلب نقدمه لقراء «صحيفة دار العلوم» فى كلمة عجلى راجين أن يتقدم لخدمة هذا الديوان من هم أقدر منا على دراسته، وأوسع زمنا لاستقصاء ما فيه. وحسب عبد المطلب منا أن نستعير بيانه لنقول فيه ما قال هو فى حافظ ابراهيم (ص ٢١٣):

يراعته سحر البيان لعابها ومقوله سيف أعز صقيل
يصول بمضمار البيان مجليا فيجلو قناع الشك حين يصول
تراه اجتلى أبكارها عربية لها غرر وضاحة وحجول
حجازية الألفاظ قد سبقت لها مطارف من إحسانه وذيول

الأخبار

١ — **مجلس الإدارة**: اجتمع مجلس إدارة الجماعة نحو عشر مرات، منذ ألفت الجماعة فى أواخر ديسمبر سنة ١٩٣٣، فأربت تلك الاجتماعات على ما يحتمه قانون الجماعة حتى يتسنى لمجلس الإدارة أن يقوم بالمهمة الملقاة على كواهل رجاله على الوجه الأكمل، وقد كلل الله تعالى أعماله بالنجاح فكون لجان النادى، والصحيفة، والجماعة العلمية، وإنه ليسرنا أن نقول إن أعضاء هذه اللجان قاموا بما عهد إليهم خير قيام. فها هى ذى الصحيفة بين أيديكم، تنطق بفضل من أخرجوها وساهموا فيها.

٢ — **النادى**: قامت لجنة النادى برياسة الأستاذ الجليل نجيب حتاته بعمل القانون وطبعه وتوزيعه على حضرات الأعضاء، كما أنها جادة فى طبع أسهم النادى فى صورة بديعة تجملها صورة دار العلوم، وستوزع على حضرات المشتركين فى أقرب فرصة، وقد جعل ثمن السهم الواحد خمسين قرشاً. على أنه لا يجوز لأى عضو أن يشترك فى أكثر من عشرة أسهم، محافظة على روح التوازن بين الأعضاء. والهمة مبذولة فى أن يفتح النادى أبوابه فى أثناء العطلة الصيفية من هذا العام إن شاء الله.

٣ — **اللجنة العلمية**: اجتمعت اللجنة العلمية عدة مرات برياسة حضرة صاحب العزة الأستاذ الجليل محمد جاد المولى بك، وتكونت منها عدة شُعَب بعضها لإحياء الأدب القديم، وبعضها للترجمة والاتصال بالآداب الغربية، واختيار الصالح منها للبيئة المصرية، وإحكام الصلة بين القديم والحديث. وهى ماضية فى عملها، راجية أن تحقق فى القريب ما تنتظر الفصحى منها.

٤ — تفضل حضرة صاحب المعالى وزير المعارف بالترخيص للجماعة بالاجتماع فى دار العلوم - مجلس إدارتها ولجانها المختلفة وجماعتها العامة - حتى يتسنى لها إنشاء ناديها، ولا شك ان هذا الفضل قابلته الجماعة، وتقابله دائماً بمزيد الغبطة والشكران.

فهرس العــــدد